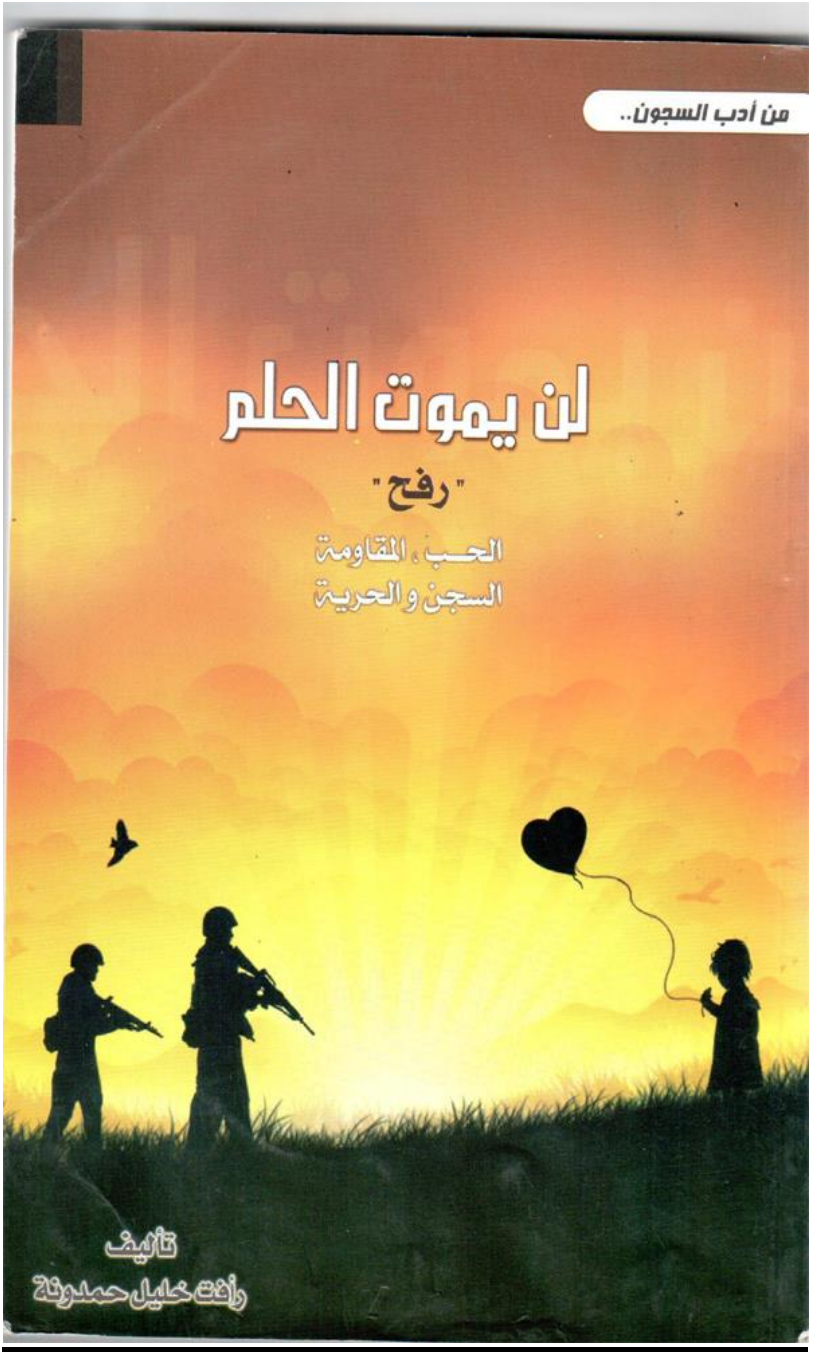
من أدب السجون..
لن يموت الحلم
"رفح"
الحب، المقاومة
السجن والحرية
تأليف
رأفت خليل حمدونة

من أدب السجون

رأفت خليل محمدونة

لن يموت الحلم

رواية

التعريف بالكاتب

- الاسم : الدكتور رأفت خليل عطية حمدونة

- مواليد : مخيم جباليا ١٩٧٠/٨/٨

- الاعتقال : في العام ١٩٩٠ م على خلفية نضالية وحُكم عليه بالسجن لمدة ١٥ عام وإغلاق جزء من بيته ، أمضى فترة اعتقاله في سجون عدة منها " عزل الرملة ، عسقلان ، نفحة ، بئر السبع ، هداريم ، ريمونيم ، جلبوع " وتم تحريره في ٢٠٠٥ بعد قضاء كامل محكوميته .

مؤهلات تعليمية :

- بكالريوس : علم اجتماع وعلوم انسانية (الجامعة المفتوحة في اسرائيل – عام ٢٠٠٥) وشهادة امتياز عام ٢٠٠١ .

- ماجستير : دراسات اقليمية تخصص دراسات اسرائيلية من جامعة القدس " أبو ديس " ، بامتياز ٩٠,٩% " عام ٢٠٠٨ .

- دكتوراة : فى " العلوم السياسية " من معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة مع مرتبة الشرف الأولى مع توصية بالطباعة في العام ٢٠١٦ برسالة تحت عنوان الجوانب الإبداعية في تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية الأسيرة .

- ماجستير مهني : تدريب وتنمية بشرية بتقدير ممتاز من البرنامج المشترك بين الأكاديمية الدولية وبوليتكنيك المستقبل التطبيقي .

خبرات سابقة :

- محاضر جامعى غير متفرغ بجامعة القدس المفتوحة .

- مدرب محترف ممارس معتمد في التنمية البشرية من المركز العالمي الكندي .

- مدرب في مجال الصحافة واللغة العبرية والاعلام الاسرائيلى .

من مؤلفاته داخل الاعتقال " نجوم فوق الجبين – عاشق من جنين – الشتات – ما بين السجن والمنفى حتى الشهادة – قلبي والمخيم – لن يموت الحلم – صرخة من أعماق الذاكرة ، يعمل مديرًا عامًا بهيئة شئون الأسرى والمحررين ، وعضو لجنة مكلف بإدارتها فى المحافظات الجنوبية ، وناطقاً اعلامياً لها فى إحدى الفترات ، ومديراً لدائرة القانون الدولى ، ومستشاراً لوزير الأسرى فى الشأن الاسرائيلى ، ومديراً لمركز الأسرى للدراسات والأبحاث الإسرائيلية ، وعمل مديراً للبرامج فى إذاعة صوت الأسرى ، ومحاضر غير متفرغ فى الجامعات الفلسطينية ، ومقدم برامج اذاعية وتلفزيونية .

كانت (رندة) تحلق في أرجاء البيت كالعصفور المغرد تملؤه حيوية وجمالاً، وشعرها الأسود يلتف حول عنقها كالكحل حول بياض العينين الواسعتين، وعلى وجهها براءة، ودوماً على محُيَّاها بسمة عذبة تجعل من بيت المخيم قصراً يعج بالحركة والحياة، وهي أقرب إلى أبيها المغلوب على أمره من أمها، (أم أشرف) التي لا تتوانى عن تذكيره بسوء حظها في الحياة بسبب زواجها منه، فلم ترث منه إلا حياة الفقر قياساً بأختها (أم غريب) المدللة لغنى زوجها.

أخذت (رندة) بنت الخامسة تلعب بخرطوم المياه مع أخيها (أشرف) وابن خالتها (غريب)، فتارة ترشهما بالماء، وأخرى تسقي شجرة الليمون التي تظلل مساحة بيت المخيم الصغير في رفح.

(غريب) و(أشرف) صديقان لا يفارق أحدهما الآخر وأغلب الأوقات يمضيانها معًا في فرح وحب وسعادة.

وكما كل صباح لبست (رندة) فستان البستان المشجر وربطت لها أمها شعرها الأسود الطويل بشبرتين بيضاويتين وذهبت بصحبة أخيها و(غريب) إلى مدرستهم، وعلى بعد أمتار خارج أزقة المخيم اعترضهم كلب أسود هارب، صرخت (رندة) بأعلى صوتها جزعاً واحتمت بأخيها الذي دافع عنها

حتى وقع على الأرض وكرهت (غريب) الذي هرب وتركها حتى وصل صاحب الكلب الذي سيطر عليه قبل أن يؤذيها.

كبرت (رندة) ومع تلك السنين كانت تكتشف أنانية (غريب) وحبه لنفسه، فحادثة الكلب ذكرتها بيوم العيد، يوم أن اشترى قالباً من الشيكولاته المحشوة بالبندق ولأنها لم تطلب منه استماعاً لنصائح والديها، فأكل كل القالب وهي تنظر إليه دون أن يُبقي لها منه شيئاً، وتذكرت ذلك اليوم الممطر أثناء عودتهم من بيت جدهم على أطراف المخيم ففتح الشمسية التي أهداها له أبوه يوم نجاحه واحتمى بها وأبقى (رندة) و(أشرف) تحت زخات المطر.

لم يعرف (غريب) في حياته الحرمان لأنه وحيد والديه، ولم يشعر بالقسوة لأنه لم يُعاقب على خطأ ارتكبه، فكان يكبر وتكبر معه شوائب نفسه، حتى أصبح شاباً يافعاً مدللاً لا ينقصه شيء لطالما ينجح في الدراسة ويحقق أعلى العلامات.

ومنذ الطفولة كانت العائلة تقول إن (غريب) لـ(رندة) مستقبلاً، ولم تكتف (أم أشرف) بالأمر بل زرعت وأختها في قلب (غريب) أنانية التملك المفرط للحصول على محبوبته التي تألقت بجمالها وشبابها بمرور السنين، الأمر الذي أوجد لديه

الاستعداد لفعل أي شيء في سبيل تحقيق حلمه بالزواج منها وبأية وسيلة.

في عام النكسة المشئوم والذي احتلت فيه إسرائيل قطاع غزة والضفة وسيناء حتى السويس والجولان، ولم يكتف المحتل بتهجير أهل فلسطين من مدنهم وقراهم واستيطانها بالإرهاب والقوة بدعم دول الغرب وقوى الشر في العالم، بل لحقهم في مخيماتهم حيث لجوئهم فشرد وهجر الآلاف منهم للمرة الثانية.. وفي النكسة وُلد كل من (رائد) و(أشرف) و(غريب).

عاش (رائد) حياة قاسية مع أمه وأبيه بصحبة أخته (نسرين) التي تصغره بثلاث سنوات على بعد عشرات الأمتار من الحدود المصرية الفلسطينية في أعقاب اتفاقية (كامب ديفيد) بين مصر ودولة الاحتلال، فقسمت رفح إلى جزأين وشتتت العائلة الواحدة في دولتين لا يمكن التزاور بينهما إلا بسفر وكان الصوت بصعوبة على جانبي السلك يسد حاجة التواصل والاطمئنان.. هذا ما كانت عائلة (رائد) تقوم به حينما تريد الاطمئنان على ابنها (خالد) في رفح المصرية عند كل مساء.

لم يكن (خالد) وأبوه بحالة الوهن ليستسلموا لهذا الواقع المر بحجة القدر فسافر (أبو خالد) لابنه واتفقا على بناء نفق يصل

الدارين وخلال أشهر قليلة كان هذا النفق بمثابة التواصل الاجتماعي والإنساني وباب رزق لـ(خالد) وأبيه وخدمة للوطن ومقاوميه أيضاً.

هذه هي الأجواء التي تربى وسطها (رائد) فصقلته بالرجولة والشهامة والسرية والشهود على قسوة الظرف وضيق الحياة.

(رفعت) و(إبراهيم) صديقان حميمان لـ(رائد) فالأول تربى معه منذ الصغر في أزقة المخيم وكتب كتابه على أخته (نسرين) التي تدرس هي الأخرى سنة أولى في الجامعة وصديقة (رندة) وزميلتها في نفس الكلية.

أما (إبراهيم) فتعرف عليه أثناء نشاطهم الطلابي في الجامعة، فكانا يثقان ببعضهما ثقة عالية، وكان (إبراهيم) يكبر (رائد) بثلاث سنوات، ولعله ليس من قبيل الصدفة أن تتساوى عدتها مع السنوات الثلاث التي أمضاها في السجون الإسرائيلية لنشاطه التنظيمي والطلابي.

أجمل اللحظات على (رفعت) وهو يلتقي بـ(نسرين) فيلقي إليها تحية الصباح فترد عليه مبتسمة بشعور من الخجل لوجود أخيها وزميلتها في حافلة الجامعة التي يستقلونها ذهاباً وإياباً من رفح إلى غزة خمسة أيام في الأسبوع.

لم يحدث أن تبادل (رائد) و(رندة) الحديث طوال الأشهر وهذا جزء من ثقافة المخيم وعادات وتقاليد العائلات المحافظة ولكن ثقة الجانبين متبادلة بـ(نسرين) التي تجمع بينهما.

لم يكتف الاحتلال الإسرائيلي بفرض الحكم العسكري الظالم على قطاع غزة بعد احتلاله وإقامة الحواجز العسكرية ونقاط التفتيش ونظام الإدارة المدنية وفتح أبواب السجون المركزية والمعتقلات فيه، حتى قاسم بضع مئات من المستوطنين الحاقدين أهله واللاجئين إليه المهجرين من بلادهم فيه!

هؤلاء المتطرفون الذين زحفوا بكتلهم الاستيطانية وسياستهم العدوانية كالسرطان في قطاع غزة وكل فلسطين من شمالها لجنوبها، فاعتلوا قمم الجبال وساحل البحر وحولوا حياة الفلسطينيين إلى جحيم، فعبر سياسة احتلال مبرمجة تحكموا في ماء غزة حتى جفت الأراضي الزراعية، وفي كهربائها فتقلصت إمكانيات نجاح الصناعة وفرص العمل وتحكموا في رزق أهلها عبر تشغيل عشرات الآلاف من العمال من فجر اليوم حتى غروبه في أعمال البناء والزراعة والصناعة داخل دولة الكيان، وعند ازدياد عدد السكان في مساحة ضيقة من الأرض زحفت المخيمات وتوسعت على حساب برتقال غزة

وزيتونها وعنبها وتينها، فتحكم المحتل في كل مناحي الحياة حتى مناهج التعليم والصحة والخدمات.

وفي شتاء عام سبعة وثمانين انفجر بركان الغضب من مخيم جباليا وانتشرت النيران في هشيم كل المخيمات وانتفض الشعب الفلسطيني كله من رفح حتى جنين في كل غزة والضفة ودعم مخيمات الشتات خارج فلسطين.

شعب فلسطين وعلى مدار ما يزيد على ست سنوات قدم فيها الطفل والشيخ والشاب والفتاة دماءهم الطاهرة والزكية فاستشهد وجرح واعتقل منهم الآلاف فكانوا مثلاً رائعاً للثورة ورمزاً للحرية.

تواصلت الانتفاضة المباركة رغم شراسة الاحتلال في قمعها ورغم الدماء الغزيرة التي سالت على مرأى العالم العربي والإسلامي فلم تحرك فيهم ساكنًا، وصمد هذا الشعب غير مكترث بحسابات الربح والخسارة، بل بثوابت الحرية والاستقلال والسيادة، فأسقط من قاموس الثقافة المزيفة للغرب مصداقية الحريات ومزاعم حماية حقوق الإنسان وتقرير المصير ومبررات وجود المؤسسات الدولية التي وجدت لحماية مصالح الغرب وحماية نفوذه على حساب المظلومين والمستضعفين والمحرومين في العالم الفقير.. هذه المؤسسات التي يتحكم في

قراراتها وأولوياتها ومشاريعها بعض الدول الغنية المستبدة والتي تحمل في ثقافتها مفاهيم التوسع والاحتلال والعبودية للآخرين فتصرف صكوك الغفران للمجرمين وتقدم الأبرياء قرابين على مذبح الهيمنة والاستكبار والتحكم بمقدرات ومصير الآخرين.

في نهاية عام سبعة وثمانين فضح الشعب الفلسطيني زيف العالم المتعفن ببشرته البراقة وانتفض على دولة الاحتلال الأخيرة في نهايات القرن العشرين فكان هذا الزمن رائعاً للرائعين ومجيداً في صفحة التاريخ يشهد بعظمة المقاومين والثائرين.

لم يتوقع شباب الانتفاضة الباسلة استسلاماً لدولة الاحتلال أو تحريراً سهلاً لبعض المناطق المكتظة فطغى جنوده في البلاد وأكثروا فيها الفساد، وحسبوا أن القوة وحدها هي خلاصهم وأن هذا الشعب لن يهدأ إلا بالإرهاب والقوة، ومن جملة الممارسات على طريق الجامعة إقامة حاجز عسكري للتسلية بكرامة المارين عبره، فأجبروا الشباب بتنظيف الشوارع من الحجارة وإطارات السيارات المحروقة، واعتقلوا كل مشتبه ونقلوه للتحقيق والمعتقلات بتهمة أو بدونها وأجبروا الكثيرين على الرقص والتعري وكان الضرب وتكسير العظام مصير كل من يرفض الأوامر باعتبارها عسكرية.

نزل (رائد) من حافلة الجامعة وسبق (رندة) التي تقدمت (رفعت) و(نسرين) فأوقفوه على الحاجز والتفوا حوله، ووصلت (رندة) فأوقفوها بجانبه الأمر الذي دعا (رفعت) و(نسرين) إلى النظر إليهم من بعيد، وبلهجة عربية مكسرة خاطب الجندي موجهاً بندقيته نحو (رائد):

- أنت، شو اسمك؟
- (رائد العسقلاني).

ثم توجه لـ(رندة):

- وأنت؟
- أنا (رندة حميد السيد).
- كويس بدي منك يا ولد تبوس هذه البنت من هون

وأشار بأصبعه لوجنتي (رندة).

خجلت (رندة) من الطلب، وتقادح الشرر في عيني (رائد) الذي استبعد إمكانية وقوفه في مثل هذا الموقف الذي يحتاج لصمود وتحدي وصبر وخاصة أنه يعرف حساسيته فرد برجولة:

- أخلاقي وديني وعاداتنا تمنعني من تنفيذ طلبك.
- هذا أمر يا... وإن لم تفعل فسنكسر لك عظمك وسننزل دمك.

احتد النقاش بين الجنود و(رائد) الأمر الذي دعا عشرات المارة على بعد من الحاجز للتنبؤ بمصير الشاب، وأغلبهم من دعم رفضه ولو كلف الأمر ما كلف، والقليل رأى مبرراً لتنفيذ الطلب مكرهاً للتخلص من العاقبة، أما (رندة) فكانت لا تملك قوة النطق رعباً وخجلاً وخوفاً على أخ صديقتها والتي لم تر منه طوال أشهر إلا الأمانة والعفة والشرف والأخلاق، وبنبرة قوية مع ضربة في صدر (رائد) بمقبض قطعة السلاح قال له الجندي:

- أنت شاب أحمق لو كنت مكانك ما ترددت ألم تعجبك؟
- لن أفعل فهذه شرفي ودمي ولحمي وابنة بلدي وعرضي.

سقطت الدمعة من عيني (رندة) التي تسمرت مكانها دون أن تنطق بكلمة واحدة، وكان الجدل فرصة لـ(رفعت) لجمع عدد من الشباب لرشق الحاجز بالحجارة عند الحاجة.. فجأة هجم عدد من الجنود بمقابض أسلحتهم وهراواتهم كالكلاب المسعورة على (رائد) فكسروا له يده وشجوا رأسه وامتلأت ثيابه بالدم وفي تلك الأثناء نزلت الحجارة على الجنود كحبات المطر فكانت فرصة لـ(رائد) لسحب (رندة) من يدها والهروب

وسط غيوم الغاز المسيل للدموع بين الناس الذين ضحوا بأنفسهم لحفظ كرامتهم وشرفهم.

نقلت السيارات الخاصة المصابين من الرصاص الحي والمطاطي والذين اختنقوا من الغاز و(رائد) إلى أقرب مستشفى فقدم الأطباء والممرضون العلاجات اللازمة للجميع.

أعاد (رفعت) صديقه (رائد) إلى البيت بعد أن ثبّتوا له يده بالجبس ومشد حول رقبته وضمدوا له جراحه وأوقفوا نزيفه، وكانت مشاعره مختلطة ما بين الرضا عن النفس لموقفه الرجولي والبطولي، وما بين الحقد الذي احتقن به على جنود الاحتلال ورغبة الانتقام منهم، وما بين الشعور بالدين لصديقه (رفعت) الذي حماه حتى عودته لأمه التي أشفقت وقلقت عليه.

أعجبت (نسرين) بخطيبها (رفعت) الذي أثبت شهامته، كما أدينت (رندة) وعائلتها بموقف أصبح حديث الناس بعظمته واستعلائه، فتعرفت (أم أشرف) على (أم خالد) و(نسرين)، وأقيمت علاقة بين (أشرف) و(رائد) و(رفعت) وحملت (رندة) حباً واراه الخجل والأخلاق لـ(رائد) الذي ضحى بنفسه لأجلها.

كان الحاج (أبو خالد) << دقة قديمة >> ويظهر في حديثه كلمات تركية أو أجنبية ولطالما حدث ابنه عن البلد

وجمالها وشبابه فيها وعن مأساة النكبة وصعوبة الهجرة والحنين الدائم والحلم المتواصل للعودة إليها.. و أشعره موقف ابنه (رائد) ومديح الناس له بالفخر والإعجاب الأمر الذي اتضح بقسمات وجهه وثنائه على ابنه الجريح.

- الحمد لله على سلامتك يا (رائد).. وعفارم عليك يا بني.

أجابه (رائد) وهو يتظاهر برفع يده المصابة:

- هذه تربيتك يا حاج

وفي صباح اليوم التالي حضرت (رندة) لبيت الحاج (أبو خالد) لتطمئن على صحة (رائد) بحجة ذهابها مع (نسرين) إلى الجامعة، وفي الطريق أومأت برأسها حياءً وقبضت بقوة على حقيبتها لتكتسب شجاعة السؤال والمبادرة وقالت:

- الحمد لله على سلامة (رائد) يا (نسرين)، لقد كان أشجع مما تصوره أحد.. كل ما حدث له بسببي.. كيف صحته.

- أجابتها (نسرين) مبتسمة، ما أجمل الحياء على وجهك يا صديقتي، ولا تحملي نفسك أي ذنب لأن السبب هو الاحتلال عديم الأخلاق وما فعله (رائد) هو ما سيفعله أي شاب فلسطيني معك أو مع غيرك من الصبايا، ولا تقلقي

على (رائد) فهو جسور وعنيد وتركته بصحبة (رفعت) في وضع ممتاز.

أحضر (أبو خالد) سيارة لنقل (رائد) إلى المستشفى لعلاج جروحه المضمدة وبدت على لهجته العجلة وهو يستعجل (رائد) و(رفعت):

- ياالله يا شباب على السبيطار.. الطرونبيل واقف على الباب.

انفجر الصديقان ضحكاً من كلمات الحاج التي لا يفهمها إلا أبناء جيله والمقربين منه.. ومع انتهاء دوام الجامعة دخلت (رندة) محلاً لبيع الزهور وانتقت لـ(رائد) باقة كهدية بسلامته وحملت له سلاماً مع (نسرين).

كانت الأوقات متقاربة لعودة الجميع للبيت، وابتسم (رفعت) في وجه (نسرين) وهي تحمل باقة الزهور ظاناً أنها أحضرتها له:

- لماذا غلبت نفسك يا (نسرين)؟
- في الحقيقة أن (رندة) هي التي غلبت نفسها وتهديها لـ(رائد) وتقول له الحمد لله على السلامة.

قال (رفعت) لـ(رائد) الذي أعجبته المبادرة وفتحت عليه باباً مغلقاً من العواطف والأحاسيس والشعور بالمحبة لـ(رندة):

- ابسط يا عم (رائد).. ظننت أن موقفي لاقى استحساناً عند أختك فأحضرت لي تلك الباقة.
- هديتك يا (رفعت) تختلف.. ما رأيك بهذا القلم الفضي الذي أكتب به؟

أعجب (رفعت) بسرعة بديهة (نسرين) وأجابها:

- جميل جداً..

واقترب أكثر من أذنها لئلا يسمعه (رائد):

- ولكنك أجمل من كل شيء.

مرت أسابيع على شفاء (رائد) الذي عاد إلى الجامعة وكان يزداد حقداً وعيناه تقدحان الشرر كلما مر على الحاجز الذي فعل جنوده به ما فعلوا، ومع ازدياد الغضب ازداد تشوقه لصديقه (إبراهيم) لكونه سجين سابق.. عله يجد عنده مطلبه في الانضمام لخلية عسكرية من خلالها يستطيع تأديب الاحتلال الذي أذل أبناء شعبه عبر الحواجز وفي الطرقات فقتل البشر ولم يفرق في تخريبه بين الحجر والشجر.

فهم (إبراهيم) تلميحات صديقه وتقدم خطوات نحوه حتى قارب وجهه أن يلمس وجه (رائد) فوضع يده على كتفه وقال له:

- أنت تعيش غيظ الأسابيع الماضية، ولحظات الإهانة على الحاجز يا (رائد).. وأرى أنك تفكر في الانتقام من أولئك الجبناء الذين كسروا يدك، ولكني أنصحك بالتفكير ملياً في مثل هذه الخطوة.. لأنها مصيرية في الدنيا والآخرة.

مسح (رائد) بطرف ثوبه عرقه المتصبب على جبينه وأحنقه حديث صاحبه وأدار وجهه وعيناه عن (إبراهيم) وقال:

- لا يا (إبراهيم).. أنا لم أعش لحظة إهانة، ولم أتوجه في لحظة تسرع، وكما قلت بنفسك غيظ الأسابيع مع أنها غضبة سنين من الاحتلال الجاثم على صدورنا والذي يذيقنا سوء العذاب ليل نهار كل الساعات بل الثواني، نعم إنهم كسروا يدي ولكنهم لم يكسروا إرادتي ولا عزيمة هذا الشعب، ولست أنا من يفكر بالانتقام فنحن مع دولة الاحتلال في صراع ذكره الله في القرآن الكريم ولا أحبذ اختزاله في موقف انتقام، فنحن لسنا عائلتين نتشاجر على ثأر، فالمسألة أكبر مما تصورها، وحديثك يقلل من وعييي ومستوى تفكيري لأن ما وصلت إليه خلاصة تفكير عميق وقرار موزون وخيار كل الشعوب التي احتُلت على مدار

التاريخ وطموح كل حر من أبناء الشعب الفلسطيني ولولا تجربتك ما توجهت إليك.

شعر (إبراهيم) بالذنب أمام (رائد) المعروف بذكائه وصدق مشاعره وحكمة قراراته.. وبابتسامة كأنها اعتذار تأسف له:

- اهدأ يا أعز الناس على (إبراهيم)، فأنا اعتذر لك، ولأنك ذكرت التجربة في الاعتقال فأحببت أن أفيدك، يا صديقي كل من تسرع في انضمامه للمقاومة ولم يحمل المفاهيم التي ذكرتها يندم حينما يرى قسوة السجن أو المطاردة لا سمح الله، فالسجن أصعب مما يتصوره مخلوق على وجه الأرض، أنا لا أرهبك منه، ولكن الله سبحانه وتعالى قدمه على العذاب الأليم بقوله تعالى: "قالت فما جزاءُ من أراد بأهلك سوءً إلا أن يُسجن أو عذاب أليم " يوسف ٢٥. وقدمه على القتل والنفي في قوله: "وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك" الأنفال ٣٠. وأتذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم معقباً على رفض سيدنا يوسف عليه السلام للخروج من السجن دون براءة: " رحم الله أخي يوسف والله لو كنت مكانه لخرجت وما انتظرت البراءة". تصور يا (رائد) لو عملت في خلية

عسكرية وقتلت جنود كما تنوي ودخلت السجن بدون أن تحمل مفاهيم إسلامية ووطنية صادقة، وقناعة راسخة فكيف سيكون حالك هناك؟ المجاهد في سبيل الله يا (رائد) قد يلاقي القتل أو المطاردة أو السجن ويجب أن لا يُفاجأ إذا وقع بها، ما علينا.. فكر أكثر في الموضوع ولنا لقاء آخر إن شاء الله.

عاد (رائد) ككل يوم بصحبة (رفعت) و(نسرين) وزميلتها (رندة)، وفي الطريق تجرأ بحديثها متذرعاً بالسؤال عن أخيها (أشرف). فأجابته بصوت مخنوق:

- (أشرف) توقف عن الدراسة في الجامعة.. وفضّل أن يساعد أبي في السوق.
- وهل له في البيع والشراء؟
- يتعلم، فأنت تعلم حالنا وأبي بدا عليه التعب في الأيام الأخيرة.
- وهل هناك أخبار عن (غريب)؟

تلعثمت (رندة) في الحديث وكأنها فهمت أنه يجس نبضها تجاه كلام نساء الحارة – والذي يروق لأمها – حول خطوبتها غير المعلنة من (غريب).. حين يأتي من السفر، وردّت متذمرة:

- أنا لا أطيق سماع اسمه يا (رائد)، وكل ما أعلمه عنه منذ ما يزيد عن ثلاث سنوات منذ سفره لدراسة الهندسة في أمريكيا أن له إجازة قريبة سيقضيها في رفح بعد أسابيع.

ارتاح (رائد) للرد الذي لم ينف شائعة الحارة، وإنما أكد رفض (رندة) لـ(غريب)، وفي ذاك المساء صارح أخته (نسرين) بميله الشريف والجدي نحو (رندة) وطلب من أخته أن تتحقق من مشاعرها نحوه.. و استيقظ في اليوم التالي مبكراً على غير عادته.. و القلق باد عليه.. وأثناء سير الحافلة إلى الجامعة جلس بصحبة (رفعت) في مقعد خلفي بعيداً عن (رندة) و(نسرين) اللتين واصلتا أطراف الحديث فسألت (نسرين):

- ما رأيك بـ(رائد) يا (رندة)؟
- ماذا تقصدين؟
- بصراحة (رائد) معجب بك ويريد إجابة منك قبل أن يصارح والديه بطلبك.

شعرت (رندة) بفرحه في قلبها، وارتسم الحياء على وجهها، وصمتت خافضةً رأسها وعلى شفتيها ابتسامة.

- لم تجيبيني يا (رندة).. ماذا أقول له؟
- قولي له إن كل فتاة تتمناه.
- ولكنه يتمناك أنت.

- لا تحرجيني يا (نسرين).. فأنا كما كل الفتيات.. وافهميها لوحدك.

كان (رائد) يراقب كل الهمسات والحركات والقسمات ما أمكن لـ(رندة) و(نسرين) التي أثقلت عليه حتى كسبت وعداً بهدية على بشارتها فكانت موافقة (رندة) كفرحة الكون وسعة الحياة وسعادتها في وجهه.

لم تكن الموافقة على الخطوبة تحتاج لأي جهد من طرف (رائد) لإقناع والديه، فهما ينتظران تلك اللحظة لإكمال آخر رسالة لهم في الحياة بالاطمئنان على آخر العنقود ومستقبله قبل موتهما، ولم يكن على قلوبهم أحلى من اختياره لـ(رندة) ابنة الحارة والناس الطيبين وزميلة ابنتهم والمشهود لها بالذكاء والدين والجمال.

بادرت الحاجة (أم خالد) بطمأنة ابنها:

- هذا يوم المنى يا (رائد)، الله يسعدك ويهنيك ويرضى عنك ويجعلها من نصيبك يا بني.

وأضاف الحاج:

- عفارم عليك يا ولد، فاختيارك برنجي ، وأنت لست بالقليل.

وأوصى الحاجة بطلبها من أمها.

لم يرق الأمر لـ(أم أشرف) التي حلمت وخططت مع أختها لتكون (رندة) من نصيب المهندس (غريب) صاحب المال والمستقبل عن قريب، وعلى الرغم من معرفة رأي (رندة) الذي يتوافق مع أبيها ردت على الحاجة:

- أنتم خير أهل وجيران، ولا شيء يخفى عليك يا (أم خالد)، فأختي طلبت (رندة) لابنها (غريب) الذي ننتظر قدومه بعد أيام من أمريكيا، ولحين عودته ومعرفة مآل هذا الموضوع لن نستطيع الرد عليكم.. دعينا نؤجل هذا الموضوع.

كانت الأيام طويلة على (رائد) والتوتر هيمن على سلوكه ومعظم أفعاله، ولم يبرد ناره إلا الرسالة الشفوية التي نقلتها (نسرين) بأن (رندة) وأباها يختلفون مع (أم أشرف) التي أعطت رداً ارتجالياً يخالفهما في محاولة لإعطاء فرصة لـ(رندة) لمقابلة ابن خالتها عند عودته لعلها تغير من رأيها ولن يحدث ذلك وتحت أي ترغيب أو ترهيب و(أشرف) لم يتدخل في هذا الموضوع لأن الاثنان في نظره واحد ويحذر مخالفة أمه أو مخالفة أبيه و(رندة).

عاد (غريب) من أمريكيا بعد عدة أيام وقد تأمرك قلباً وقالباً، يختلط حديثه بكلمات انجليزية ومعظم حديثه عن

الحريات الشكلية بعيداً عن المضمون، فيرى أن للفتاة حرية اللباس كما للشاب حرية في تكوين الصداقات والعلاقات معهن، منبهر بالغرب، ولطالما ينعت العرب بالجهل وقلة الوعي والتقدم، يرى أمريكيا سيدة الكون وكل محاولة للتحضر لن تنجح دون الدوران في الفلك الأمريكي، لم يخلُ قميص أو بنطلون من ملابسه من العلم الأمريكي فهو في نظره رمز الصناعة والحضارة والثقافة والتقدم، ودوماً يضع نظارات شمسية سوداء أعلى جبينه ويضع حول رقبته عقد من الذهب وكذلك حول معصم يده اليمنى وفي يده سيجارة.

يرى أن إسرائيل دولة قائمة ولن تزول إلا بزوال أمريكيا وأن الدماء التي تذهب باسم مقاومة الاحتلال ما هي إلا خسارة على أهلها، ومن يموت <<تروح عليه>> وأن <<الطاسة ضايعة>>، ولا يؤمن لحظة بحتمية النصر ويستبعد أي طموح للسيادة وزوال الاحتلال، عاد مهزوماً مبهوراً في كل الاتجاهات، كان يقول إنني ذهبت لدراسة الهندسة وأنني لن أعود إلا مهندساً ولا ينكر أنه انحط بأخلاقه هناك ولكنه كان يحمل كشفاً من علامات المواد التي درسها وبأعلى الدرجات.

كان يستوعب أي خسارة في الحياة إلا (رندة)، فهو يراها ملكة منذ الصغر وجن جنونه حينما سمع أن (رائد) تقدم لها فرأى أن من الأهمية التنسيق مع خالته للالتقاء بها.

- كيف حالك يا (رندة).. أنت الشيء الوحيد الذي حملني على قضاء الإجازة في رفح.. والوحيدة التي اشتقت إليها هنا.

قالت بشجاعة لتحسم الموقف وتنهي الجدل والأمر من قلبه:

- شكراً لك على مشاعرك، وبصراحة أجد فيك أخاً لا شيء آخر، فأنا لا أؤمن بالمفاهيم التي عدت بها ولن أنفعك والدنيا قسمة ونصيب.

كان رداً مزعجاً حاول (غريب) أن يستوعبه بمبادرة اجتماعية أمريكية فوضع يده على كتف (رندة) وقال لها:

- أنت قسمتي بموافقة أمهاتنا منذ الصغر وأتمنى أن تكوني من نصيبي.

وعلى غير طبيعة (رندة) قبضت على يدي (غريب) وألقتها وبازدراء مع نظرات غضب قالت:

- أنا لست سلعة تقسم بغير إرادة، ولست نصيبك.. وهذه الحركات تعملها مع بنت أمريكية هناك وليس هنا في فلسطين.

وباندهاش بنبرة سخرية رد عليها:

- إذا لم تكوني من نصيبي فمن إذاً صاحب النصيب؟

صمت قليلا ثم أردف:

- من نصيب (رائد).. أليس كذلك؟

- نعم من نصيب الإنسان الذي حماني، ودافع عن كرامتي وشرفي في حين غيره . وأشارت إليه . هرب وتركني وحرمني في جوعي وآثر نفسه وتركني تحت البرد والمطر.

استشاط (غريب) غضباً وقال لها:

- مبروك! وأتمنى أن لا تندمي.

وتناول نظارته بيده وترك البيت دون أن يرد على خالته التي حاولت الاستفسار منه دون جدوى فدخلت لـ(رندة):

- ماذا قلت له حتى ترك البيت بكل هذه العصبية؟

صمتت (رندة) لحظات وهي تذرف الدموع ثم عانقت أمها ومالت برأسها على كتفها وسألت بحزن وكأنها تطلب الموافقة على رأيها من أمها المتحكمة بالبيت:

- ألا تحبينني وتتمنين راحتي ومستقبلي يا أمي؟

شعرت (أم أشرف) بتقويض حلمها ودمار مخططها على مدار سنين بزواج (غريب) صاحب المال والشهادة من ابنتها وحتى لا تخسر بيتها وابنتها وعلى غير قناعة برأيها قالت:

- بلى يا ابنتي.. كل ما أتمناه هو راحتك وضمان مستقبلك وإن كان هذا موقفك الأخير فليكن وسنرد على (أم خالد) بالموافقة على خطبتك لـ(رائد).. ولكن بعد سفر (غريب).
- شكراً يا أمي ربنا يطول عمرك.

شعور فظيع ورحلة كانت كالكابوس وإرهاق مع ألم كبير ألَمَّ بـ(غريب) الذي فقد محبوبته التي تمناها سنينا، الأمر الذي عكر صفوه وقطع زيارته وعاد لتكملة تعليمه في أمريكيا.

وأما (رائد) فكانت أسعد ذكرياته وهو يضع الشبكة في يد خطيبته (رندة) التي همس بأذنها في حين يحتفل الباقون بالمناسبة:

- أشكر الله أن قدر لي كسر اليد من أجلك لأحظى بهذا الحب، كم هؤلاء الجنود أغبياء بتصرفهم فجعلوا من المحنة منحة لي من الله، وأنا على يقين لو أنهم علموا بما حدث لفتحوا الحاجز على مصراعيه وما استوقفوا أحدا.

خجلت (رندة) من كلام (رائد) وابتسمت له وبعفوية وبراءة قالت:

- وهل تتمنى كسراً آخر؟
- إذا كانت النتيجة كذلك.. سأفكر.

منذ ذلك اليوم الجميل وفي أعقاب حفلة الخطوبة وكتب الكتاب كانت رحلة الجامعة ملتقى (رائد) بـ(رندة) وتحرر حينها (رفعت) منه حينما كانت تجلس (نسرين) بجانب (رندة).

لم ينس (رائد) كسر يده وجروحه وإهانته على الحاجز العسكري رغم الصدفة الرائعة التي حدثت له، وبقي مصراً على موقفه من واجب مقاومة الاحتلال فذهب يبحث عن (إبراهيم) الذي تعددت لقاءاته بالدكتور (عطية).

لمح (إبراهيم) (رائد) من بعيد فاستأذن من الدكتور وتوجه نحوه وعانقه:

- ألف مبروك يا (رائد) وعقبى لعند العرس.
- عقبى لعندك يا صديقي، فما الذي تنتظره وأنت تكبرني بثلاث سنوات؟

سرح (إبراهيم) في حديث (رائد) وقال في نفسه:

- ستعرف قريباً يا (رائد).. فمثلي من خطورة الحياة أفضل أن يبقى وحيداً.

واستدرك نفسه فأجاب صديقه:

- حتى أكمل تعليمي يا عريس.
- بالنجاح يا (إبراهيم) وأتمنى أن لا تكون قد نسيت مطلبي وحديثنا؟

- أنت مجنون يا (رائد)، ألم تفكر في وضعك الجديد، بالأمس خطبت واليوم تطلب أن تُنظَّم؟
- وهل كل المنظمين المتزوجين والخاطبين من رجال المقاومة والفدائيين مجانين؟ وهل الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة الذين حملوا الدين ونصروه كانوا بغير زواج؟ أم أن الله عز وجل الذي كتب القتال كتبه على الأعزب فقط؟! لا يا (إبراهيم).. جهاد الاحتلال فرض عين على الأعزب والمتزوج والشاب والشيخ والمرأة والرجل على حد السواء، وموقفي السابق كما أكدت لك نابع عن عقيدة وإيمان وتفكير عميق وليس نزوة عابرة أو ردة فعل أو غضبة ميدانية، هذا واجبي كما هو واجبك وواجب كل الشرفاء من أبناء شعبنا الأسطورة في العطاء والتضحية والفداء.

قال (إبراهيم):

- معك حق يا (رائد).. لقد أفحمتني بحجتك، انتظر مني جوابًا حول طلبك.

اجتمع (إبراهيم) مع الدكتور (عطية) بشأن (رائد)، فالدكتور (عطية) أستاذ في الجامعة، ولكنه المسئول الأول عن أعمال المقاومة والتنظيم في كل القطاع، فهو يقيم في قطاع

غزة تسعة أشهر ويعود لسكنه وأهله وأبنائه ثلاث أشهر أخرى في مصر، هناك يقدم تقريرا وافيا لممثلية المقاومة حول العمليات والتنظيم والشهداء والجرحى والأسرى لتأمين مخصصات لهم، ويعود بالمال لشراء السلاح الذي يعتبر المشكلة الأكثر تعقيداً في كل فلسطين، كان مسئولاً عن كل الخلايا التي يقوم بتنظيمها (إبراهيم) من خلال نشاطه الطلابي وكان دائم الاستعداد لمفاجئة اعتراف أو اعتقال قد يصل إليه لترك غزة كلياً والعودة إلى مصر.

- هل تعرفت على (رائد العسقلاني) يا دكتور (عطية)؟

صمت الدكتور لحظات ووضع أصبعه على جبهته وأخذ يسترجع ذاكرته وأجاب:

- أنا على يقين أن هذا الاسم مر عليّ.. ذكرني يا (إبراهيم).
- الآن ستعرفه، هل سمعت بحادثة الحاجز بين شاب رفض تقبيل فتاة فانهالوا عليه بالضرب.

هز الدكتور رأسه.. وقاطع (رائد):

- نعم.. نعم.. تذكرته.. ولكن لماذا تسألني عنه؟

- هو جاهز للتنظيم، وهو عاقل وموزون وغير متسرع وينتمي بأفكاره ووعيه قبل عواطفه وسيكون مكسب كبير للمقاومة بشكل عام.
- أرجو أن لا تتسرع يا (إبراهيم)، وعليك أن تتفحص أمره ونقاءه الأمني والأخلاقي فهذه مسئولية كبيرة.
- لن تجد من أمثاله إلا القليل وستثبت لك الأيام ما أقول.
- على بركة الله.. ضمه مع ثالث بمجموعة جديدة، مع أن السلاح لا يكفي حاجة المقاومين لكثرة عددهم.. لذا أقترح استخدام نفس السلاح لأكثر من يد في أكثر من عملية حتى نجد حلاً لهذا الأمر.

بلّغ (إبراهيم) صديقه (رائد) بالموافقة وأعلمه بحاجة ثالث للمجموعة فعرض عليه اسم (رفعت) الذي صارح (رائد) سابقاً بأمنية التنظيم في عمل المقاومة، وكان (رفعت) ممنوناً لـ(رائد) باختياره وعلى عدة جلسات تم تدريب المجموعة على عدة أنواع من السلاح.

طلب (رائد) اجتماعاً سرياً للمجموعة لمناقشة أكثر من عملية وتحديد حاجاتها وشروط نجاحها ولم يستغرب أي من (إبراهيم) و(رفعت) وهو يقدم مشروع ملاحظة الحواجز

العسكرية الذي شعر بإهانتها وتقويض وضعها الأمني ومعاقبة الجنود على ممارسات الذل بحق المارة.

قال (رفعت):

- ولكن كل عملية لضرب أي حاجز تحتاج لأيام من المراقبة وكمية كبيرة من السلاح وسيارة ووسائل أخرى وإلى جلسات مطولة من التخطيط قبل التنفيذ.

مشى (إبراهيم) حائراً ذهاباً وإياباً وهو يفكر كيف سيؤمن هذه الحاجيات وتساءل في نفسه:

- هل يمكن توفير هذه الإمكانيات في هذا الوقت؟

ثم رفع صوته مخاطباً أصحابه:

- دعونا نكمل التخطيط ونحدد هدفاً ثابتاً.

لم يطل (رائد) التفكير حتى أجابه:

- أعتقد أننا لن نختلف حول الهدف، لأني لن أرتاح حتى أشفي صدري من الحاجز الذي أهانني.. هنا أرى أن نبدأ.

اتفق الثلاثة على مسح منطقة الحاجز ومراقبته وعلى خطة لإلقاء عدد من القنابل اليدوية عليه ثم أمطاره بزخات من الرصاص بأسلحة خفيفة وتعاهدت المجموعة على السرية والإخلاص في العمل والصدق مع الله.

كانت (رندة) تعتز أمام صديقاتها بخطيبها (رائد) المعروف بشهامته ورجولته فضلاً عن شخصيته المحبذة فكان شاباً رياضياً قوي الجسم عريض الصدر والكتفين، شعره ناعم يميل إلى الحمرة متوسط القامة أسود العينين تبدو على قسماته الحكمة والذكاء وسرعة البديهة جدي التعامل مع الغريب ودائم البسمة مع القريب ومتفوق في الدراسة ولم يبق على تخرجه إلا أشهر قليلة في تخصص التاريخ.

لم يستطع (رائد) أن يكسب ود حماته طوال فترة الخطوبة.. وتقف في وجهه ذكرى تفضيلها لـ(غريب) ابن أختها عليه.. ومع هذا بقيت المجاملات بينهما.

لم تنقطع الاتصالات بين (أشرف) و(غريب) في أمريكيا لأن الأخير يعرف أن ابن خالته لم يقف عقبة في وجهه ولم يتمن أو يختر (رائد) عليه وكانت العلاقة بين (أشرف) و(رائد) ودية ولكنها لم تصل لحد الصحبة والثقة كما (غريب) صديق العمر منذ الطفولة.. أما (أبو أشرف) فيحترم (رائد) ويحبه ويقدر فيه اتزانه وجديته ورجاحة عقله ولكنه يبقى ضعيف أمام (أم أشرف) التي لم تعطه الفرصة الاجتماعية وفق العادات للتقرب منه أكثر وبقيت علاقة (رائد) محصورة بخطيبته (رندة) التي كانت تنسيه المحيط عند كل زيارة لبيتهم.

لم يترك (رائد) أباه وحيداً يصارع الحياة لينفق على البيت وطالبين في الجامعة بل وقف بجانبه وسانده وكان ينفق مع أخيه (خالد) الذي كان أيضاً يسترزق من تهريب البضاعة المصرية من ملابس وأغذية إلى قطاع غزة وكان الحاج (أبو خالد) يتحسس من تهريب أي شيء غير شرعي ودائم الخشية لله عز وجل.

أطلع (إبراهيم) الدكتور (عطية) على الخطة التي رسمتها المجموعة وحدد له مطالبهم فوافقهم ووعد (إبراهيم) بتأمينها لهم بعد يومين.. لم تمر الساعات سهلة على (رائد) وصاحبيه فكان دائم الحلم بهذا اليوم الذي تمناه وفي اليوم المحدد وقبل ساعات من تنفيذ العملية ذهب (إبراهيم) لمكتب الدكتور (عطية) وسلمه رسالة ودعا له بالتوفيق، قصد (إبراهيم) صاحبه (رائد) ليرى فحوى الرسالة ودعا الله أن لا تكون رسالة اعتذار وخاصة أن النفوس مشحونة والاستعداد للعملية بلغ الذروة، أسرع (رائد) نحو (إبراهيم) منذ أن رآه من بعيد وبدت عليه علامات القلق وبصوت منخفض سأله:

- طمئني يا (إبراهيم).. ماذا حدث معك؟ لا تقل لي الأمر غير ممكن.

- صدقني لا أعرف الجواب لأنني لم أتسلم إلا رسالة جئت إليك لمعرفة ما بداخلها.

أخرج (إبراهيم) الرسالة من جيبه وبدأ بقراتها:

" بسم الله الرحمن الرحيم، وفقكم الله وحماكم ورعاكم.. إياكم أن تنسوا نية الإخلاص لله ثم للوطن، توجهوا لشارع عمر المختار . للشارع الغربي . من منتزه البلدية وستجدون فيه سيارة من نوع (بيجو) أعلى دولابها تحت السائق يوجد مفتاح وفيها ستجدون خمسة قنابل يدوية وبندقيتين رشاشة مع عدد من المخازن وكاميرا فيديو لتصوير العملية ومبلغ من المال ستحتاجونه مستقبلاً وبعد تنفيذ العملية نتمنى أن تكون بنجاح وسلامة لكم، توضع السيارة بالمرآب الشرقي لمكتب الوكالة بمخيم الشاطئ.. بالتوفيق وعلى بركة الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

نظر (رائد) إلى (إبراهيم) وسأله:

- من يضمن أن فحوى الرسالة واقع؟ أو أن السيارة غير مراقبة؟ علينا أن نأخذ حذرنا وأفضل أن أذهب وحدي.. على أن تراقبني من بعيد لئلا يحصل لا سمح الله لكلينا.

قاطعه (إبراهيم):

- ولماذا أنت؟

- لا يوجد وقت للمجادلة.. حتى لا يداهمنا الوقت.

في تلك اللحظة قابلهم (رفعت) وفق موعد اتفقوا عليه مسبقاً.. ذهب (رائد) إلى المكان ووجد السيارة والمفاتيح في المكان فتفقد السيارة وقام بتفتيشها، فوجد كل ما تم ذكره في الرسالة ثم قاد السيارة واصطحب رفيقيه للاتفاق على أدق تفاصيل العملية قبل القيام بها لأن أي خلل في التنفيذ قد يودي بحياة المجموعة.. وعند اكتمال كل شروط النجاح والأخذ بأسبابه توجه الثلاثة إلى المسجد وصلوا ودعوا الله وتوكلوا عليه.

قاد (رفعت) السيارة وكانت عليه مهمة تصوير العملية واليقظة الكاملة للانسحاب من موقع العملية في الوقت المناسب، وصل الثلاثة للحاجز الذي بدا خالياً من المارة وفق المراقبة.. فتناول (إبراهيم) قنبلتين وفاجأ بهما الجنود الذين نزلوا إلى الأرض وحينها امتشق (رائد) سلاحه وسدد رميته إلى جنود الاحتلال الذين تعالت أصواتهم رعباً ورهبة وجبنًا، فأصابوا وقتلوا عدداً منهم.

انسحب (رفعت) من المكان باتجاه شارع فرعي بعيداً عن العين وبدأ الرصاص يتطاير من بنادق الجيش في كل الاتجاهات، كانت عملية عسكرية موفقة بكل المقاييس وألحقت

بالجيش خسائر فادحة فأفقدته ثقته بنفسه وأمنه وحطت من مستواه في نظر المقاومة والناس، فأصبحت العملية حديثهم في العمل والسوق والجامعة وأثنوا على منفذي العملية ودعوا لهم بالسلامة.

وضع المجاهدون الثلاثة السيارة في المكان المذكور بما تبقى بها من وسائل القتال.. وعاد الجميع إلى بيوتهم بعد أن باركوا لبعضهم بالنجاح.

شعر (رائد) بالسعادة والفخر كلما تخيل الموقع الذي تحول لكومة من الحديد المتطاير وأحس بعزة النفس والكرامة.. انتبه لصوت أبيه فأسرع متوجهاً نحوه وسأله:

- أعطني الترانزوستر يا بني فسلمت أيادي المقاومة التي نفذت عملية الحاجز هذا المساء.

اعترف العدو الإسرائيلي عبر إذاعته الموجهة باللغة العربية بمقتل اثنين من جنوده وإصابة ثلاثة أخرين بجروح متوسطة وتوعدت باعتقال منفذيها معتبرة إياهم الأخطر من بين المقاومين.

في صباح اليوم التالي التقى (رائد) بخطيبته (رندة) التي أظهرت فرحها بمصير الحاجز الذي أهانها وتسبب بكسر

وجرح (رائد) ولكنها لم تفكر لحظة أن من نفذ العملية هو (رائد) وكانت البداية به لأجلها.

لم تتوقف أعمال المقاومة في كل فلسطين، فالانتفاضة أوجدت جيلاً ثائراً يتطلع للحرية والاستقلال.

تم بث صور العملية البطولية في محطات التلفاز وأشهدت العالم على عزة الشعب الفلسطيني وجبن أسطورة الجيش الذي لا يقهر وأشاد الدكتور (عطية) بالمجموعة التي أثبتت للعالم أن شعب يملك هذه الإرادة لا يمكن أن ينكسر، وعلى أثر نجاح العملية تمنى معظم الشباب فلسطين لو كان لهم شرف المشاركة في أعمال المقاومة العسكرية وكانت الآلاف تبحث عن عنوان ليستوعبها لولا قلة الإمكانيات وندرة السلاح.

طلب (رائد) اجتماعاً آخر للتخطيط لعملية ثانية حدد هدفها، وحينما تشاور (إبراهيم) مع الدكتور عطية وافقه على التخطيط دون التنفيذ في هذه الأيام التي استنفرت فيها أجهزة المخابرات لمعرفة منفذي عملية الحاجز.

فلقد كان هدف (رائد) قطعان المستوطنين والجيش الذي يحميهم، الذين استوطنوا ما يقارب من نصف قطاع غزة في أفضل مناطقه وأخذوا حريتهم في التنقل والعيش على حساب مئات آلاف اللاجئين في ثماني مخيمات قسمتها الحواجز

ونقاط التفتيش فتم التخطيط لعملية إطلاق نار دقيقة على طريق المستوطنات، أوكل الدكتور عطية تنفيذها لمجموعة مقاومة عسكرية أخرى لم تكن أقل حماساً من مجموعة (إبراهيم) و(رائد) و(رفعت).

تدفق الشباب مجموعات.. مجموعات.. للمشاركة في الانتفاضة الأولى، ولأن التنظيمات كانت أقل قدرة على استيعاب هذا العدد الهائل منهم فاجتهدوا بكل الوسائل لمقاومة الاحتلال التي تنوعت على إثر أحداث قاسية كمذبحة الأقصى التي أسفرت عن استشهاد ما يزيد عن عشرين شهيداً بباحته في الثامن من أكتوبر فقدم المخلصون والصادقون دماءهم رخيصة في سبيل الله.

في منتصف الانتفاضة أنهى (رائد) و(رفعت) و(إبراهيم) تعليمهم وتخرجوا من الجامعة، وبقي (إبراهيم) على تواصل مع الدكتور عطية، وتواصلت بهمتهم وشرفاء فلسطين العمليات البطولية التي أقلقت مضاجع الصهاينة في كل مكان، وأثناء الانسحاب من عملية قام بها (رائد) ورفيقيه واختلاطهم بالمارة تعرف عليه زياد الذي كان صديقاً لـ(أشرف)، وكان صادقاً في توجهه لـ(أشرف) ليتوسط له بالعمل مع نسيبه في المقاومة.

لم يصدق (أشرف) ما سمعه من زياد، فمسكه بقوة من قبضة قميصه وهزه بعنف:

- قد تكون أخطأت التقدير يا زياد ففكر في الأمر جيداً.

قبض زياد على يدي (أشرف) بقوة وألقاها جانباً وأجابه:

- أنا لا أقدر ولا أتكهن فقد رأيت (رائد) بعيني مسرعاً بعد تنفيذ عملية استهدفت سيارة عسكرية، واستقل سيارة برفقة آخر.

ظن (أشرف) أن (رندة) على علم بنشاط خطيبها (رائد) فتوجه لها لتأكيد الخبر ن ففوجئت بما سمعت ولم تتكر عليه فعله إذا ما كان صحيحاً وسألها:

- إذا ما تأكد لك أن (رائد) أحد رجال المقاومة وقد يُقتل أو يُسجن أو يُطارد فهل ستواصلين خطبتك به؟

نظرت (رندة) لأخيها بنظرات كلها ثبات وفخر وابتسمت ابتسامة سخرية وردت:

- وهل ترى في عمل المقاومة ما يعيب؟

خفض (أشرف) رأسه وأجاب:

- لا أقصد يا (رندة) ولكن أي فتاة تبحث عن استقرارها وسعادتها!

- إذا كان الكل سيبحث عن سعادته واستقراره فمن أين سنحضر فلسطين من سيبحث عنها واستقلالها وعزة أهلها وكرامتهم، وأي سعادة تلك التي سنشعر بها وسط هذا الإذلال الذي يفرضه علينا الاحتلال. بئست السعادة تلك يا أخي فإن آثرت أنت بسعادتك فعلى الأقل أترك غيرك يتحملون عبء تحقيقها لك دون أن تحاكمهم ليس إلا لأنهم شرفاء وأوفياء وفدائيين ومضحين ويوهبون أرواحهم وراحتهم وزهرات أعمارهم من أجلك وأجل غيرك، وإن تأكد ما تقول فـ(رائد) أقرب إلى قلبي وعقلي من قبل، وأتمنى أن يحقق لنا أمثاله نصراً بعزائمهم.

التقت (رندة) بـ(رائد) فقرأ في عينيها كلاماً وسألها:

- ما بك يا (رندة)؟
- لن أتدخل في أمور أعتقد أن من الخطأ الاستفسار عنها، ولن ألومك على شيء أعتقد أنا بصوابه، ولن أحملك هماً، هنالك ما هو أهم منه، ولكن خوفي عليك يجبرني أن أحذرك فهنالك من رآك وأنت تتسحب بعد تنفيذ عملية عسكرية ووصل الخبر لأخي (أشرف) الذي حذرته من إبلاغ والدتي التي ستقيم الدنيا وتقعدها حتى ننفصل.

بدا على (رائد) التوتر وقرأ ت (رندة) في قسمات وجهه تأكيد الخبر الذي وصلها أرادت الاستئذان بتركه فأوقفها مستفسراً:

- وما رأيك أنتِ؟

قلبت (رندة) أصابعها وبهدوء مع رضا أجابته:

- دير بالك على نفسك يا (رائد)، وفقك الله وحماك من كل سوء.

مرض والد (غريب) بمرض أقعده في الفراش وحينما ساءت حالته وشعر بخطر الموت طلب رؤية ابنه (غريب) الوحيد فاتصل (أشرف) بابن خالته واستدعاه قبل إنهاء دراسته بفصل واحد، كان (غريب) يحب والده الذي لم يحرمه من شيء طوال حياته ولم يجد أي مبرر للتأخر عن الحضور ولو بقي لآخر امتحان في جامعته إلا يوم واحد. وعلى جناح السرعة وصل (غريب) لرفح لكنه لم يلحق حياة أبوه فودعه في موته وقام بواجب الجنازة.

كان (أشرف) الأقرب إلى (غريب) في محنته، فوقف بجانبه وجانب خالته التي فقدت زوجها وتنتظر فراق وحيدها الذي بات يستعد للسفر، وفي أيام وداع (غريب) الأخيرة لم يفارقه (أشرف) طوال الليل ومعظم النهار فيشكوان همومهما ويتصارحان مع بعضهما البعض، لم يشأ (غريب) إحراج

صديقه بالسؤال عن (رندة) التي فقدها فأشعل سيجارة وحتى يعرف أخبارها سأل (أشرف) عن صهره (رائد)، تنهد (أشرف) وبدا عليه تفضيل السكوت.

شعر (غريب) من حركات (أشرف) تهربه من الإجابة فسأله:

- لماذا تسكت يا (أشرف) أهناك شيء تحبذ عدم التطرق إليه؟
- كلا..، فأنت أخي ولا شيء يخفى عليك، وبصراحة أنا قلق على مستقبل (رندة) التي فضلت الارتباط مع إنسان يحمل روحه على كفه، (رائد) فدائي يعمل في المقاومة يا (غريب) وله يد في العمليات العسكرية التي أفقدت الجيش وأجهزة مخابراته الصواب في الفترة الأخيرة.
- ماذا تقول يا (أشرف)؟
- ما سعت يا صديقي ولو علمت أمي بهذا الموضوع الذي أخفيه عنها لأجبرت (رندة) على الانفصال عنه.

اشتدت المقاومة في الانتفاضة وتوالت الضربات وتصاعدت حدتها ولكن لابد من حل لمعضلة عدم كفاية السلاح للحد الأدنى من حاجة المقاومة. الأمر الذي جعلها من أولويات التفكير في حياة (رائد) الذي طلب لقاء (إبراهيم).

- لن أسألك عن القيادة ولكني أستفسر منك عن حدود توسعهم وإمكانياتهم، وإن كان لديهم القدرة على تدبير شحنة من السلاح والذخيرة وإيصالها لرفح المصرية، سأجد حلاً لدخولها إلى غزة.
- كل علمي يا (رائد) أن لا مشكلة في المال والسلاح والنقل حتى رفح المصرية، ولكن المشكلة في نقاط المراقبة بحراً وبراً لجنود الاحتلال، وكما تعلم أن العشرات استشهدوا أثناء تهريبها، وفي كل الأحوال سأحضر لك رداً سريعاً.

اجتمع (إبراهيم) مع الدكتور عطية الذي لم يصدق ما سمع وطمئنه بقدرته على طلب (رائد)، ولو تطلب الأمر سفرية خاصة إلى مصر للاجتماع بممثلية المقاومة هناك، وأوصى (إبراهيم) بعدم الاستفسار عن وسيلته مستكفياً بالثقة والقدرة التي أظهرها (رائد) في الأشهر السابقة.

حضر (إبراهيم) لـ(رائد) يحمل بشرى الموافقة على طلبه، وطلب منه خطة مقنعة ودقيقة لعرضها على القيادة للموافقة على تنفيذ عملية تهريب ستكلف مبالغ وإمكانيات ضخمة في حال فشلها لا سمح الله.

استوعب (رائد) حديث صديقه ولم يعاتبه بل ابتسم في وجهه وقال:

- ولكن نجاح العملية بمثابة نجاح الانتفاضة، ونصر لرجالها، وستقبل أسود على الصهاينة والاحتلال وحماية لروح الشباب الثائر بأقل الإمكانات لعدم توفر السلاح حباً في الجهاد والشهادة، اطمئن يا (إبراهيم) وستجد مني ما يسرك إلا إذا فقدت الثقة بصديقك.

ضحك (إبراهيم) وقال:

- على العكس فكل يوم ثقتي والقيادة بك تزيد أكثر وأكثر ولكن لترتيب أمورنا فلا تطيل علينا بالخطة على الأقل بواجبنا فيها.

كانت أول الخطوات في خطة (رائد) موافقة والده لترتيب مع أخيه (خالد)، على الجانب الآخر من السلك، ولكن على يقين بأن أباه حر ويحمل في قلبه كرهاً للاحتلال ما يجعله يضحي لتلقينه درساً لن ينسوه، لأنه لم ينسى لحظة من لحظات الهجرة وعذابات الطرد بالقوة واغتصاب الأرض والرحيل عن مسقط الرأس، ومئات الشهداء وآلاف الجرحى ومئات الآلاف من المشتتين خارج فلسطين.

دخل (رائد) البيت فوجد أباه على غير عادته عابساً وغاضباً، جبهته مليئة بالخطوط العريضة على أعلى حاجباه

الكثة بالشعر الطويل الأبيض حتى كاد أن يصل عيناه فألقى السلام فأجابه:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- ما بك يا حاج؟
- أشعر بحر الصيف كالهبو يحرق وجهي، ولا أكاد أتحمل الهدمة على جسدي أو وضع المشاية تحت قدمي التي باتت أقل قدرة على حملي.

حينها حضرت الحاجة وبيدها طعام الغداء للحاج، فنظر إليه تارة ثم إلى وجه أم (خالد) متظاهراً بعدم الرضا لمخالفته وعاتبها:

- كم مرة قلت لك أحب أن آكل الملاحة (الفتوش) من السلطانية مباشرة أم أنك تمدنت على كبر ونسيت الدكان والهندية وتنباك أبوك وأصبحت تحضرين لنا الطعام بصحون زجاج ولا أستبعد غداً تقديم التنبو مع الطعام أمك يا (رائد) قلعت ثوبها وصارت من نساء البندر.

تظاهرت الحاجة بعدم الرضا فتمتمت بكلمات غير مفهومة ولوت عنقها وذهبت دون أن تنبس ببنت شفه.. ضحك (رائد) من هذا المشهد التقليدي المتكرر أمام ناظريه منذ أن خلق على وجه الأرض، وكان يعلم أن هذه الحالة لن تطول ساعة

واحدة ويجد والديه على أفضل حال من التفاهم مع طول حديث بكلمات أثرية أكل عليها الدهر وشرب في هذا الزمان وهمس في أذن والده المليئة بالشعر:

- إذا كانت الحاجة تمدنت فهل بقيت يا حاج على عهد البلد؟

- أنت يا ابن صعاليك اليوم ستخبرني إن كنت على عهد البلد أم لا، ناولني المقشة من جنبك لأعلمك الحديث مع والدك.

أدار (رائد) رأسه من لطمة يد الحاج الثقيلة على وجهه وقال له:

- إذا كنت ستعلمني بجد، وتعلم من حرموك من البلد درساً فكل المقاومة بحاجة لمساعدة لن يحققها سواك.

وحينما سمع بالمقاومة تحامل الحاج على نفسه بضبط الأعصاب وخفض صوته وقال:

- اخفض صوتك يا بني فالحيطان لها ودان فما هي حكايتك؟

- المقاومة بحاجة لتهريب شحنة سلاح ستكون جاهزة في رفح المصرية لمقاومة الاحتلال.

أجابه الحاج بنبرة استهجان:

- وبأي صفة تتحدث إليّ؟

تفاجأ (رائد) من السؤال ووجهه تغير وبدا عليه التوتر وأجابه بكلمات خالية من المنطقية:

- بصفتي صديق لأحد رجال المقاومة من بعيد، وهو يعد بمقابل كبير من المال في حال إتمامها.

قدح الشرر من عيني الحاج الغائرتين والملتفتين بالسواد واحتج باستفزاز:

- تفو عليك يا ولد فهذا ما بقي من أبيك في كبرته، يجب عليك أن تعرف أن التجارة هام والتضحية المفروضة عليّ وعلى المقاومين على السواء هام آخر.

وفكر قليلاً ثم أردف متابعاً:

- ولكن أخبرني ومن يضمن لي رجولة وثقة صديقك هذا؟

رد (رائد) بثقة وكأنه نال الموافقة:

- أنا أضمنه يا أبي وأعرفه منذ الصغر ولن أشهد عليه إلا الصدق والشهامة والإخلاص.

نعم كان يتخيل الحاج ابنه (رائد) مهما كبر وتعلم طفل، ولكن حادثة الحاجز العسكري مع خطيبته (رندة) شهدت له بالمصداقية ورجاحة العقل فقبل بشهادته وشعر بالأمان ثم طمئنه:

- ولو أن المسألة فيها مخاطرة، ولكني سأوهب العمل لله وحده، فبلغ صديقك أن يحضر أمانته ليلة السبت المقبلة ويسلمها لأخيك (خالد) الذي سأرتب المسألة معه على العنوان الذي تعرفه وإياك أن تحدثهم عن وسيلة التهريب.

شعر (رائد) بالفخر بأبيه وتقدم نحوه بخطوات وقبَّلَ رأسه وقال:

- بارك الله لنا فيك وأطال عمرك يا حاج.

اتفق (رائد) مع (إبراهيم) على الخطة والموعد والعنوان وأبلغ الأمر للدكتور عطية الذي أسرع لترتيب تصريح من الإدارة المدنية لئلا يضيع الوقت، وهناك صادف (غريب) على مقعد الانتظار فاضطر لمبادلته أطراف الحديث في محاولة منهما لقتل ساعات الانتظار المملة.

بدأ (غريب) بالحديث:

- لأي الأمور حضرت لهنا؟
- لترتيب تصريح سفر إلى مصر لأطمئن على ابني الذي تعرض لحادثة فجائية.
- في هذه الحالة أقول يا مآسي الصدف فأنا أيضاً حضرت مضطراً من أمريكيا لوداع والدي قبل وفاته.

وتفاجأ (غريب) بطلبه لمقابلة ضابط المخابرات فدخل متوتراً:

- أهلاً وسهلاً بالمهندس (غريب).

ثم نادى مجندة ترتدي بزة عسكرية:

- أحضري مشروباً للضيف.

وعرض على (غريب) سيجارة أمريكية. تناول (غريب) السيجارة وأشعلها له ضابط المخابرات واعتذر (غريب) عن شرب أي شيء وقال:

- أنا لست ضيفاً، ولا أعرف سر استدعاءك لي فهذه ليست المرة الأولى التي أسافر فيها.

تظاهر ضابط المخابرات بضحكة مصطنعة وقال:

- أعلم.. وأعلم أيضاً أنه لم يبقّ لك من التعليم إلا فصل واحد ولكنك يا (غريب) ممنوع من السفر.

وقف (غريب) عن الكرسي الذي يجلس عليه ووضع السيجارة التي لم تنتهي في المنضدة وقال:

- لماذا وكيف وما السبب، فأنت تدمر مستقبلي وحلم أهلي وكل طوحي في الحياة، كما وإني لا أتدخل بشيء لدرجة نعتي بالانهزامي لقناعتي بعدم جدوى المقاومة...

قاطعه الضابط:

- أنا معجب بآرائك وبمستقبلك يا (غريب)، وبإمكاني الحديث مع أجهزة الأمن ومساعدتك لتكمل تعليمك وعلى

حسابنا من السفر والعيش وأجرة البيت وقسط التعليم والعودة، ولا تنسى التسلية هناك مع الجميلات.

- ولكن مقابل ماذا؟
- لا تقلق يا (غريب)، فقط مقابل معلومة واحدة لا تتعدى كلمتين عن اسم منفذي العمليات العسكرية في منطقتك.
- أي تريدونني جاسوسا؟
- لا نريدك جاسوسا يا (غريب)، فالأمر لا يتعدى الدقيقة ولمرة واحدة لا غير ستضمن بها مستقبلك، ولا مين شاف ولا مين دري، أو أنك ستخسر كل شيء.

رفض (غريب) عرض رجل المخابرات الذي أوصاه بعدم التسرع في الأمر والتفكير بتأني، وإذا ما قبل العرض يأتي ثانية للإدارة المدنية ويطلب الضابط كوهين.

عاد (غريب) وهو يحمل في قلبه هماً كبيراً، وحالة غريبة من التناقض ما بين رفضه للعمالة، ورغبته في إنهاء الدراسة التي لا يمكن تحقيقها إلا بالسفر، وتمر في مخيلته المغريات الأخرى وفي النهاية عزم على الرفض.

استقبلت ممثلية المقاومة في مص الدكتور عطيه بالمزيد من الفخر والترحاب، وأطلعهم على تقارير المقاومة وأسماء الشهداء والجرحى والأسرى، وتحدث لهم عن خلية (إبراهيم) و

(رائـد) و(رفعـت) وإنجازاتهـا وانتصـاراتها وعـن خطـة تهريـب الأسـلحة التـي حضـر لترتيبهـا، ولـم تتـوانى قيـادة المقاومـة بتأمينهـا والموافقـة عليهـا ووجـدوا فـي نجاحهـا أهـم إنجـازات الانتفاضـة وشـرط تواصـلها، كمـا ووجـدوا فـي (رائـد) شخصـية مركزيـة علـى مستوى المقاومـة فـي قطـاع غزة وأوصـوا الدكتور عطية به وبرفيقيه.

كانت الأيام طويلة على (رائد) الذي انتظر اشارة وصول شحنة الأسلحة لأخيه، وكان سعيداً حينما أبلغه أبوه بترتيب كل الإجراءات للتهريب مع أخيه (خالد) عبر النفق بين البيتين.

أمضـى (رائـد) أيامـه فـي العبـادة والصـلاة وقـراءة القـرآن والدعاء لله بالتوفيق، وأخلص نيته لله عز وجل من أجل رفعة الدين وتحرير الوطن، وكلما ضاقت عليه الدنيا يفر إلى ربه فيطمئن.

وفـي الموعـد المحـدد اسـتلم (خالـد) شـحنة الأسـلحة التـي كانت كفيلة بتغطية حاجات المجاهدين الدنيا في تلك المرحلة، واتفق مع أبيه و(رائد) على موعد نقلها.

فـرح (رائـد) وهـو يـرى نجـاح خطتـه بنفسـه، وعـانق والـده بحرارة كلما وصل صندوقاً مقفلاً من الشحنة عب رالنفق بجهده وتعبه وعرقه المتصبب كالماء.

استدعى (رائد) صديقه (إبراهيم) لسرعة نقل الشحنة لمكان آمن غير بيتهم، الأمر الذي لم يصدقه بهذه البساطة، ومن فجر اليوم التالي كانت الشحنة كلها خارج رفح.

لم يعد الدكتور عطية إلى قطاع غزة حتى تأكد من نجاح العملية التي استوعبت الكثير من شباب المقاومة، وحملتهم من نصر إلى آخر وإلى نصر أكبر منهما.

رفض (رائد) مبدأ عرض المال كمقابل للعملية من الدكتور عطية الأمر الذي زاد إعجابه وثقته به، ولكن الدكتور أصر ألا يتنازل عن تكريم أعضاء المجموعة الثلاثة بتقديم قطعة من السلاح مع ذخيرتها لكل أخ منهم.

مرت اللحظات سعيدة على (رائد) الذي شعر بالنصر، الشيء الذي انعكس على سلوكه وحديثه فاشترى عقداً ذهبياً كتب عليه الحرف المشترك من اسمه واسم (رندة) وذهب لبيت خطيبته ليطمئن عليها وعلى دراستها.

لم يرق لـ(رائد) وجود (غريب) في بيت خالته لولا وجود (أشرف) هناك، وكانت مشاعر الغضب الممتزجة بالكراهية أشد في قلب (غريب) تجاه (رائد)، وبقدر سعادة (رندة) بهدية (رائد) كانت ردة فعل (غريب) تجاهه.

عـاد (غريـب) مـن بيـت خالتـه منهـك الأعصـاب متعـب ومضرب وكأنه خسر الدنيا بكل جمالها مع خسارة (رندة) واتهم (رائـد) قاطعـاً باختطافهـا منـه.. هـذه الزيـارة أعـادت لمخيلـة (غريـب) كـل شـريط الـذكريات مـع (رنـدة) منـذ الطفولـة فأقسـم لحظتها بتقويض هذا المشروع ولو دفع مقابله ما دفع، وتذكر معلومة انتماء (رائد) لرجال المقاومة كما أخبره (أشرف)، ورأى بهـا فرصـة العمـر، باعتقـال (رائـد) وبالتـالي إبعـاده عـن طريـق (رندة)، بينمـا هـو يسـافر ليكمـل دراسـته ويحصـل علـى الشـهادة والعيش الهانئ، إذا وافق علـى عـرض الضـابط (كوهين)، ولـو لمرة واحدة بالتبليغ عن (رائد).

ومع شروق الشمس قصد (غريب) الإدارة المدنية وطلب مقابلة الضـابط كـوهين، كـان الضـابط سـعيداً بنجاحـه فـي تفريـغ شـاب فلسـطيني مـن محتـواه الأخلاقـي والـوطني، وأكثـر وهـو يحقـق نصـراً لدولتـه المحتلـة مـن خـلال وضـع يـده علـى طـرف الخيـط لرجـال المقاومـة الـذين يحرصـون علـى السـرية التامـة مـا أمكـن ويتعاهـدوا علـى ضـبط أنفسـهم حرصـاً وحـذراً مـن الـذين بـاعوا ضـمائرهم وشـعبهم بـثمن بخـس دراهـم معـدودة للمحتـل الـذي اغتصـب أرضـهم وحتمـاً سـيتخلى عنهم فـي حـال إفلاسـهم مـن الخدمـة لينفضـح أمـرهم وتتكشـف نوايـاهم السـيئة، ألـح الضـابط

علـى (غريـب) ليطـال المزيـد منـه حـول رجـال المقاومـة ونشاطهم، ولكنه لم يشعره بعبء جرمه واكتفى بالسؤال:

- هـل لـك علـم بالـذين يشـاركون (رائـد العسـقلاني) فـي نشاطه؟
- بالتأكيـد لا أعلـم، ولكنـه علـى علاقـة قويـة مـع نسـيبه (رفعت)...

ثم أضاف وكأنه يتوسل للضابط:

- أتمنـى تأجيل اعتقال (رائد) لئلا يشك أحد بـي إلـى مـا بعد سفري.
- لك ما تطلب.

مر يومان على سفر (غريب)، ومع منتصف ليلة الجمعة، وأثناء سهرة اعتادت عليها الأسرة، فرض نظام حظر التجول على مخيم رفح والمنطقة المحيطة به، ودخلت قوة كبيرة من المشاة والجيبات العسكرية وقوات تعزيز أخرى، وحاصرت كلاً من منزل (رائد) و(رفعت)، كالكلاب المسعورة وبكل وحشية وبدون أدنى أحساس بالأخلاق أو الضوابط القانونية ولا حتى الإنسانية، اعتلى الجنود أسقف المنازل المجاورة، واقتحموا ساحة البيوت، وأرهبوا الأطفال والنساء وأجبروا الرجال على رفع الأيدي، وعصبوا أعينهم، وبعد التشخيص، اعتقلوا كلاً من

(رائـد) و(رفعـت)، وبـدأ التحقيـق الميـداني بالضـرب والشـتم والتجـريح والإهانـة منـذ الخطـوة الأولـى خـارج البيـت وداخـل السيارة العسكرية، وحين الوصول إلى مركز التحقيق أجبروهما علـى خلـع ملابسـهما وتفحصـوا أجسـامهما مـن أي إصـابة، وفتحوا لكل منهما ملفاً طبياً كممارسة تقليدية دونوا فيه الاسم والسكن ورقم الهوية والوزن والطول والحالة الصحية العامة.

تفرق (رائد) عن (رفعت) في مسلخ التحقيق الذي يبدو وكأنه قطعة من الجحيم نزلت على الأرض، أسرى مشبوحين بالسلاسل، وآخرين مقيدي الأيدي والأرجل بأوضاع مختلفة، وسط رائحة نتنة كريهة وأجواء مختلطة بالرعب والرهبة، وصيحات ألم متصاعدة من هنا وهناك جراء التعذيب الشديد.

بدأ التحقيق مع (رائد) وبعت بموجه عالية من العنف والإرهاب والتهديد في محاولة لكسر معنوياتهما ووجهوا لهما اتهامات عامة وقضايا لا تمت بصلة إليهما، كانت كل دقيقة في ذاك الواقع المرعب ثقيلة وبتحامل على الذات وبصبر صعب تمر فتنقل الصديقان من محطة إلى أخرى بين ألوان العذاب.

طلب المحقق وهو ضابط مخابرات إسرائيلي استدعاء (رائد) الذي جلس متواصلاً ثماني ساعات، مقيد الأيدي من

خلف الظهر على كرسي من الحديد لا يزيد طوله عن نصف متر مثبت بالأرض، وحينما دخل وعلى وجهه كيس من القماش الخشن يمنع التنفس إلا بصعوبة مختلطة مع رائحة متعفنة في داخله وبنبرة قوية تخفي في داخلها جبناً قال الضابط:

- متى ستريح نفسك وتعترف مثل صديقك (رفعت)، فلن تجني إلا المعاناة والألم ولن نتركك حتى تضع هنا كل ما في جعبتك وقد تأخذ يوماً فتكسب صمتك وتختصر عذاباتك أو تبقى أشد والنهاية حتماً واحدة.

سكت (رائد) عن الكلام فقد كانت المصلحة الوطنية تتطلب صبر عشرة أيام على الأقل لترتيب إجراءات سفر الدكتور عطية والذي سيخرج من فلسطين ويصطحب معه سر العمل العسكري وكل الاتصالات مع الخلايا على طول قطاع غزة.

تدفق الدم في عروق الضابط الأشقر ذي العينين الزرقاوين غضباً من هذا السكوت وأمر السجان بوضعه في غرفة الثلاجة وإحضار (رفعت) الذي دخل بقصر قامته ونحافة جسمه وهو يجد سروالاً طويلاً أزرق تسلمه في بداية التحقيق على الأرض تحت قدميه وبنفس النبرة والأسلوب بدأ المحقق بكلامه:

- (رائد) اعترف وكل شيء قمتم به سوياً يا (رفعت) وأنت الآن فقط تجني على نفسك فتتعب وتتعبنا معك ليس إلا لتصنع من نفسك بطلاً وتتباهى أمام السجناء الأمنيين في السجن بصبرك وتحملك . لذا لا تحلم بذلك ولن تخرج من هنا إلا جثة، أو وبصمتك على اعترافاتك على لائحة اتهاماتك. أنت متهم بالتنظيم والتدريب ومهاجمة سيارات عسكرية ومستوطنين وحواجز ونقاط مراقبة ولذا أخبرني يا بطل عنها جميعاً واحدة.. واحدة.

رد (رفعت) على المحقق بسخرية:

- لو أن كل شاب تعتقلونه وتتهمونه بكل هذه التهم وأنتم على يقين بأنه فعلها لتحررت فلسطين قبل سنين، أنا لست بطلاً وليس لي أي دخل في كل ما تقول.
- اسمع يا (رفعت) لو أخذنا بحجة كل معتقل أنه بريء من كل شيء لكذبنا أنفسنا وواقعنا بوجود شيء اسمه انتفاضة، أم أنك ستقنعني أن القنابل تنزل على آلياتنا العسكرية من السماء؟

اقترب المحقق أكثر إلى (رفعت) ولكمه بقوة في وجهه وثانية في بطنه وسابعة وتلاها بالمزيد من ضربات البسطار ذي

المقدمة الحديدية في كل أنحاء جسمه، وأضاف وهو يلهث تعباً ويتصبب عرقاً:

- أعدك بأنك ستعترف.

ثم نادى على السجان وطلب أن ينقله إلى حوض الماء لغمر رأسه فيه حتى يعترف.

علم (إبراهيم) باعتقال صاحبيه، ورغم الخطورة التي تقع عليه خشية اعترافهما تحت سوط العذاب فكان همه الدكتور عطية فذهب إليه وحذره.

أسف الدكتور عطية على اعتقال هذه النخبة الممتازة من شباب المقاومة، ولم يكن أمامه إلا ترك غزة والعودة لمصر بعد أن استكمل رسالته، وكان على يقين أن المقاومة بلغت من قدرتها ما يجعلها تستغني عنه، فأوصى (إبراهيم) بنفسه فقد يطاله الدور إن لم يحذر وكلفه بمسئولية المقاومة، والتواصل مع الخارج وأطلعه على بعض الأسماء والقضايا الهامة لمتابعتها بعد سفره.

عاش (إبراهيم) حياته مطارداً في بيوت مهجورة وفي الخلاء تحت الأشجار المتشابكة في البيارات، فلم يذق طعم الراحة أو الاستقرار واكتفى بالكفاف والقليل من الزاد والملبس، وحمل هم صديقيه المعذبين في زنازين الاحتلال.

عشرون يوماً مرت على (رائد) و(رفعت)، كعشرين عام في الزنزانة الصغيرة الضيقة والمعتمة الفاقدة للتهوية بالجدران السوداء،وقليل من البطانيات القديمة المهترئة والمبللة، التي يفترشها مع خمسة مناضلين يلتقيهم لأول مرة من مناطق مختلفة. فيتقاسمون لقمة العيش بدون شهية إلا للحياة ويضطرون لقضاء حاجتهم في دلو مكشوف في الزاوية.

لقد صبر المحقق الذي وصلته المعلومة المؤكدة على (رائد)، فضاعف التحقيق الجسدي والضغط النفسي عليه بتهديده باعتقال خطيبته وإبعاده إلى لبنان.

كان التهديد بالإبعاد أهون على نفس (رائد) رغم قسوته، ولكن (رندة) كانت الحلقة الأضعف في صمود (رائد) ليس إلا لمكانتها وصدقه معها وتحمل كل شيء ما لم تمس بسوء.

نُقل (رفعت) إلى غرف العصافير بخطة دنيئة أفشلها لهم (إبراهيم) أثناء دروس التوعية الأمنية التي أوصى بها أصحابه حين الحديث عن أساليب التحقيق في السجون وما هي إلا أيام ارتاح فيها (رفعت) من مسلخ التحقيق المتواصل ليل نهار ولم يُفاجأ من محاولات يائسة وأساليب مكشوفة لمجموعة ساقطة من العملاء تظاهرت بالوطنية لخداعه لمصارحتهم بنشاطه وتحركاته وأسماء أصدقاءه في الخارج بحجة تحذيرهم من

إمكانية الاعتقال وحينما يئسوا من مكانية اعترافه أعادته المخابرات ثانية إلى مسلخ التحقيق.

لم يترك الحاج (أبو خالد) ابنه وصهره في محنتهم، فوكل لهم محاميا لم يستطع زياراتهم في الأيام الأولى من الاعتقال بحجج أمنية، وترددت (رندة) لزيارة (نسرين) التي كانت تطمئنها على (رائد) في الوقت الذي كانت فيه أمها تزيد من همها وتذكرها بسوء حظها الذي اختارته بأيديها حينما فضلت (رائد) على ابن خالتها المهندس (غريب).

أما (إبراهيم) فكان ما بين الاستمرار في المقاومة في غياب الدكتور عطية واعتقال أعز الناس على قلبه والاجتماع خفية بـ(أبي خالد) للاطمئنان عليهم.

ضاعف ضباط المخابرات جهودهم، وباتوا يفكرون في أساليب جديدة للتعامل مع صمود (رائد) الذي خصته المعلومة، وبعد الفجر على غير عادة سمع (رائد) صوت خطوات سجان تقترب من باب الزنزانة وارتفع صوت دقات المفاتيح المزعجة وهو يجربها الواحد تلو الآخر ثم تفوه باسم (رائد) من بين الأسرى الآخرين بصحبته، فدعوا له بالصمود والسلامة بعد أن اطمأن كل مناضل منهم بأنه سيتأخر ساعات لصالحه للبدء بجولات جديدة من التحقيق.

وبسبب كيس التحقيق على الرأس اصطدم (رائد) بشخص كان يتقدمه لسيارة البوصطة (المخصصة لنقل المعتقلين) وهي سيارة مغلقة الجوانب بصفائح حديدية مثقوبة بثقب صغيرة خارج زجاج الشبابيك فاعتذر منه:

- آسف.

كان هذا الشخص هو (رفعت) الذي ما أن سمع صوت (رائد) الذي لم يلتقيه من بداية التحقيق وبعفوية شديدة استدار وعانقه قائلاً:

- أنا (رفعت) يا (رائد)، كيف حالك، وماذا حدث معك.

شعر (رائد) بالأمان وهو يسمع صوت صديقه (رفعت) للمرة الأولى في هذه المحنة ورد عليه:

- أنا بخير يا (رفعت).. طمئني عليك.

تدخل السجان بعنف لقطع عناقهما وحديثهما، وأحكم قيودهما ووضع كلاً منهما في زاوية داخل البوصطة وجلس عدد من السجانين بينهما. وفي منتصف الطريق بين سجن غزة وعسقلان وقفت البوصطة، وطلب الضابط من السجانين النزول لتغيير أحد إطارات السيارة الذي أعطب، عاد السجان لداخل البوصطة وبنبرة تهديد قوية طلب من (رائد) و(رفعت)

عدم الحديث معاً حتى يتم تغيير الإطار وتركهما لوحدهما وأقفل عليهما الباب ونزل.

اطمئن الصديقان لشعورهما بارتفاع السيارة وفك الإطار وتركيب آخر وبدأ (رفعت) بالحديث:

- هل حقاً يا (رائد) اعترفت عليّ وعلى كل شيء كما أخبرني الضابط؟

لم يكن الوقت مناسباً للعتاب على صيغة السؤال فقال (رائد):

- لا تصدق يا (رفعت) فلا جديد عندي وعلينا أن نصبر في التحقيق ما أمكن حتى يتدبر (إبراهيم) الأمر قبل فوات الأوان.

أجابه (رفعت) بكلمات تحمل تساؤلاً:

- ولكن من سبب اعتقالنا وكيف؟
- وضعت يدك على جرحي يا (رفعت) فهذا ما يؤرقني ويزرع في قلبي الشك في كل من حولي، فلا تفوت دقيقة حتى أتساءل بنفس السؤال ولن أهدأ ما حييت حتى أصل إليه وأعاقبه على خسته وفعلته.

سكت الصديقان لشعورهما بهبوط السيارة وسماع صوت باب البوصطة يفتح.

جلس السجانون بين (رائد) و(رفعت) ومشت السيارة لتصل إلى مركز تحقيق سجن عسقلان الذي يشهد بظلم بريطانيا وفظاعتها مع الثوار قبل قيام دولة الاحتلال.

فرق السجانون (رفعت) و(رائد) كل في زنزانة انفرادية لوحده، وفي اليوم التالي طلب ضابط المخابرات إحضار (رائد)، وبشعر نشوة رحب به:

- أهلاً وسهلاً بالفارس الذي وقع، ألم تسمع بالمثل العربي الذي يقول: " لم يقع إلا الفارس ".

شعر (رائد) بنبرة ثقة من حديث الضابط وقال له:

- عن أي وقوع تتحدث، وإن كنت تقصد الاعتقال فلن يطول.

ضحك الضابط بثقة أكبر ورد عليه:

- أنا لا أقصد الاعتقال

ثم تقدم ورفع الكيس عن وجه (رائد) وقبض ناصية شعره بقوة حتى كادت تخرج في يده وتابع قائلا:

- أنا أقصد (إبراهيم) والخلية العسكرية والعمليات التي قمتم بها، فيكفي استهبال يا ابن.....

وألحقه بضربة قوية هبط على إثرها على الأرض وتابع المحقق صارخاً:

- من يكون (إبراهيم)؟

أجابه (رائد) بتحدي:

- أنا لا أعرف أحداً بهذا الاسم.
- أعدك بأنك ستعرف بعد سماع هذا الشريط.

شعر (رائد) بالانهيار وهو يسمع تسجيلاً للحديث الذي دار بينه وبين (رفعت) أثناء توقف سيارة البوصطة وأدرك أنه وقع في مصيدة لم تخطر على البال وأن الترحيل من سجن غزة وتغيير إطار السيارة ليس إلا خطة للإيقاع به وبـ(رفعت) وتسجيل ما دار بينهما من حديث.

وبعد الانتهاء من سماع الشريط سأل المحقق:

- والآن ما رأيك بما سمعت؟

بقي (رائد) على موقفه رغم ضعف حجته، فنادى المحقق على السجان الذي أعاد الكيس المتعفن على رأس (رائد) وأحكم قيود، وأمر المحقق بدوام هز رأس (رائد) وكتفيه وذراعيه.

بقي (رائد) على هذه الحال حتى بات لا يقوى على حمل رقبتيه ورأسه ومعظم أنحاء جسمه.

أصيب (رفعت) بالذهول وهو يسمع للشريط لدى المحقق واعتبر أن الإنكار بات غير مجدٍ بعدما حدث، وبعد صمود

طويل كان كفيلاً حسب ظن (رفعت) بتحذير (إبراهيم) وإعطائه فرصة لترتيب أموره مع المسئولين وباقي شباب المقاومة.

قطع صوت المحقق ذهول (رفعت) وتفكيره وهو يصرخ:

- أظن أن الإنكار هلاك بعد هذا الشريط يا (رفعت)؟

فهم (رفعت) مقصد المحقق فأجاب:

- ليس عندي غير ما سمعت
- إذاً من (إبراهيم)؟
- (إبراهيم عبد الحميد) زميلنا في الجامعة وهو نشيط في العمل الطلابي ونحن نساعده.

قاطعه المحقق:

- أنا لا أسأل عن النشاط الطلابي بل عن النشاط العسكري، تذكر أنك سألت (رائد): " هل حقاً اعترفت عليّ وعلى كل شيء؟ " والنشاط الطلابي شيء، ونحن نريد كل شيء.

رفض (رفعت) الحديث عن أي شيء، الأمر الذي أثقل عليه التحقيق، وتكثيف الجولات بأساليب تعذيب مختلفة.

مرت ثمانون يوماً على هذا الحال حتى يئس المحققون من إمكانية استخلاص اعترافات مطلوبة تحقق إنجازاً لأجهزة الأمن على صعيد ضرب المقاومة، وكانت الورقة الأخيرة

للضغط على (رائد) الذي خصته المعلومة اعتقال خطيبته (رندة).

لم تستوعب (أم أشرف) اعتقال ابنتها وألقت اللوم كل اللوم على زوجها المغلوب على أمره بحجة مساندة (رندة) على هذا الاختيار الذي انتهى بهذه النتيجة الغير مستوعبة، ولم يسلم (أشرف) من كلمات جارحة من أمه لمجرد سكوته على ذلك الاختيار.

خشيت الحاجة (أم خالد) على ابنتها (نسرين) التي قد يطالها الاعتقال فأرسلتها خفية إلى بيت خالتها خارج رفح الأمر الذي أثار حفيظة الحاج (أبو خالد) فردت عليها زوجته بقولها:

- لا تنام بين القبور ولا تحلم أحلام مزعجة.

وافقها الحاج (أبو خالد) بقوله:

- والله صدقت يا (أم خالد) فهؤلاء الخواجات يطلع منهم كل شيء.

وطلب منها الذهاب إلى بيت (أبو أشرف) ليواسوهم ويطمئنوهم أنه أوكل محاميا لـ(رندة) وأنه أبلغ كافة مؤسسات حقوق الإنسان بشأنها، لم ترق الزيارة لـ(أم أشرف) التي باتت تنتظر الإفراج عن ابنتها وفرصة فسخ الخطوبة من (رائد).

لـم يسـتطع (إبـراهيم) الانتظـار مكتـوف اليـدين لا يعـرف شـيء عن أصـحابه، فقصد نقابـة المحـامين وطلب منهم زيـارة أصـحابه القدامى فـي سـجن عسـقلان الـذي يسـتقبل كـل أسـير ينهـي فتـرة التحقيـق، وأوصـى أن يراسـله إذا مـا علـم بـأمرهم أي أسير جديد التقى بأي من (رائد) و(رفعت) أثناء التحقيق.

كانت مفاجأة (رائد) باعتقال خطيبته شديدة جداً، وتحولت ساعاته إلـى سنين، حيث كـان يدرك حساسية اعتقال فتاة فـي وسط محافظ لا يستوعب هذه المسألة التي يفترض أنها طبيعية فـي واقـع الاحـتلال، وأدرك أن تحريرهـا غيـر ممكـن بـدون اعتراف منـه، وبدأ يفكر فـي قضية ترضـي المحققين وتخرجهم من مسئولية الفشل بعد أن يئسوا من إمكانية تحصيل اعتراف ذا قيمـة، كـان سيحقق لهم سبقاً ونجاحاً لضـرب المقاومـة التـي أقلقت جيش الاحتلال رغم المعلومـة التـي تلقوها حـول نشـاط (رائد).

وسط هذه الهموم بقـي (رائد) متماسكاً قوياً وواصـل تفكيره بخطة تنجيه وخطيبته وصديقه والمقاومة من خطورة كبيرة مع طول أيام التحقيق القاسية، التي تستمر في غير صالحه والتي مـن الممكـن أن تـودي بـه وبصـديقه (رفعـت) للحظـة ضـعف ستكون قاتلة.

ومع أول جولة جديدة في التحقيق أبدى (رائد) استعداداً للاعتراف على عملية إطلاق نار لم يُكتب لها النجاح الأمر الذي أسعد المحقق الذي يئس من (رائد) و(رفعت).

- خطوة شجاعة يا (رائد) فما هي علاقتك بالعمليات والمسئولين عنها؟

أجابه (رائد):

- بشرط الإفراج عن (رندة)؟
- لا تشترط فالتحقيق جارٍ معها وفي حال اعترافك وعدم تسترها عليك سنخلي سبيلها وهذا متوقف على اعترافك.
- أنا لا أذكر أني تنظمت في صفوف المقاومة، وعملت في خلية مع (رفعت) و(إبراهيم عبد الحميد) وتدربت على السلاح، ولكننا لم نقم إلا بعملية إطلاق نار واحدة على سيارة عسكرية لم تؤدِ إلى جرح أو قتل أحد وهذا هو كل ما عندي.

ابتسم المحقق الذي حفظ ماء وجهه لدى مرؤوسيه، بهذا الاعتراف وحاول إخفاء رضاه، وأنكر على (رائد) اعترافه طالباً المزيد دون جدوى مع الصديقين رغم تواصل جولات التحقيق والتعذيب.

حاول المحقق استخلاص اعتراف من (رندة) التي لم تتعرض لوسائل تعذيب صعبة ولكنها كانت أقوى بعزيمتها وصبرها، إلا أنها لم تسلم فحكموها ستة أشهر إداري دون قضية، وقد التقت أثنا اعتقالها مع ثلة من خيرة فتيات فلسطين من المجاهدات والمناضلات.

يئس ضباط التحقيق من (رائد) و(رفعت) واستكفوا باعترافهما لينتقلا بعد التوقيع على ما جاء في الاعترافات إلى أقسام السجن المليء بمئات المجاهدين الذين آثروا حرية و كرامة وعزة واستقلال شعبهم ووطنهم ومقدساتهم على سعادتهم وزهرات شبابهم فأشهدوا العالم على أن فلسطين والقدس أعز من أرواحهم وأعمارهم وأعز من حياتهم وسط أبنائهم وأحبتهم وكل متاع الحياة الدنيا.

سعد (إبراهيم) عندما استقبل رسالة من السجن تخبره باستقبال صاحبيه في الأقسام، بعد انتهاء التحقيق معهما، كما وضعته الرسالة في صورة كاملة عن اعترافاتهما التي استطاعا بصبر وثبات أن يختزلاها ببنود قليلة حفظت شباب المقاومة ووسائلها وإمكانياتها.. وذهب (إبراهيم) لذوي صديقيه ليطمئنهم عليهما.

فرحت الحاجة (أم خالد) بسلامة ابنها وصهرها، وباتت (أم أشرف) تعد الأيام للإفراج عن ابنتها، ليتسنى لها بعد ذلك إقناعها بترك (رائد)، وترتيب مسألة ارتباطها بـ(غريب) الذي ستتزامن عودته من أمريكيا مع خروج (رندة) من السجن.

كثيرة هي السجون الإسرائيلية الموزعة من شمال فلسطين حتى جنوبها، قلاع مليئة بالأسرار والشجون وأسماء لا يعرفها إلا من أمضى زهرة شبابه وسني عمره داخل هذه السجون، كانت هذه الأسماء مألوفة على الأسرى بداخلها فمن سجن غزة وعسقلان ونفحة وبئر السبع إلى الرملة وهداريم وريمونيم والتلموند وشطة وكفار يونا والمسكوبية حتى جنيد وجنين ورام الله والخليل مروراً بمعتقلات أنصار والنقب ومجدو وعوفر.. أسوار عالية وأسلاك شائكة وزنازين معتمة، ومساحات ضيقة وهواء قليل وشمس محجوبة وجدارن أكلت من أعمار آلاف المخلصين والصادقين من أخوة ورفاق ومجاهدين حرمتهم الحد الأدنى من شروط الحياة، وحرموا من الحرية والزوجة والأولاد ولقاء الأهل والأحبة والصحبة، وحرموا من ألوان الطعام والشراب والبيت وتراب الوطن ن فعاشوا محرومين ولكنهم صابرين وصامدين أمام قسوة السجن وسطوة السجان.

عشرات الأمتار تفصل بين السور الشرقي والسور الغربي للسجن، ولكنها كانت تطحن أجساد الآلاف من الذين تعالوا على جراحاتهم وتحاملوا على آلامهم وتضامنوا وتكاتفوا بكل قوتهم فلم تنكسر إرادتهم وعزائمهم.

كانت الحياة تعج داخل الكتل الإسمنتية المحاطة بالأسلاك الشائكة من طلاب علم ينتقلون من جلسة سياسية إلى جلسة دينية ومن دورة لتعلم اللغة الانجليزية إلى أخرى في اللغة العبرية، وهناك العشرات ممن أتموا حفظ القرآن الكريم، والمئات ممن أتقنوا اللغات والآلاف ممن أنهوا قراءة عشرات الكتب.

في تلك المقابر التي خصصت للأحياء لم يتوقف الزمن ولا الثقافة والهدف، بل تغيرت أشكال النضال لحفظ الكرامة والحياة العزيزة مع تغير الظرف، وأخذ الصراع بين الأسرى وإدارة السجن الحاقدة شكلاً آخر ووسائل جديدة بما يملكه الأسرى من أدوات كأمعائهم واحتجاجاتهم بوسائل مختلفة.

تعرفت (رندة) في سجن التلموند المخصص للماجدات من السجينات الفلسطينيات على ثلة مجاهدة من زهرات الوطن، عشرات المعتقلات ممن أبينّ إلا التمثل بالصحابيات المقاتلات والسير على طريق (أسماء) و(الخنساء) و(أم سلمة)، فرأينّ في فرض العين والمقاومة بأشكالها أمر لا يخص الرجال دون

الفتيات أو النساء، فحملن الراية بثبات وعزيمة وإيمان ، ووقفن يداً بيد وقلباً بقلب، مع إخوانهن وآبائهن وأزواجهن في الصف الأول من جبهة القتال، فشاركن في مجالات التوعية والتثقيف على صعيد النشاط الطلابي في الجامعات والمعاهد، وودهن أبنائهن على طريق الجهاد والشهادة، ونقلن السلاح والرسائل من منطقة لأخرى، وفجرن أجسادهن في وجه الغاصب وقدمن شهيدات في سبيل الله والوطن.

وأعجبت (رندة) بحالة التنظيم المميزة للحياة داخل المعتقلات فصقلتها الأيام وأكسبتها تجربة مميزة، كانت العلاقة قوية بين الفتيات على السجينات اللواتي نفذن سياسة قمعية ضدهن.

تقربت (رندة) من (آمال) ممثلة الأسيرات أمام إدارة السجن، و(منى) ابنة يافا التي تقوم بدور المترجمة ما بين (آمال) و(رينات) ضابطة القسم، فأحبتهنّ وكأنها تعرفهنّ منذ سنين.

(آمال) المجاهدة البطلة ابنة الثامنة والثلاثين والمعتقلة منذ عشرة أعوام لاتهامها بالمشاركة في قتل اثنين من الجنود، حيث قامت بنقل سيارة مفخخة لأحد المناضلين، تعاطفت مع

(رندة) ورأت فيها الابنة التي تعوضها عن تهاني التي تركتها بعمر ثماني سنوات وأصبحت فتاة بعمرها.

كانت شروط الحياة التي فرضتها إدارة السجن قاسية على الأسيرات ومع هذا استطعنّ بحكمتهن وتجربتهنّ الاعتقالية تحصيل معظم حقوقهنّ والحفاظ على كرامتهنّ وعزتهنّ. كانت (آمال) ترعى الأسيرات وكأنها أمهنّ جميعاً فهي أكثرهنّ تجربة وأكبرهنّ سناً الشيء الذي انعكس على علاقتها مع (رندة)، وفي إحدى الليالي دارت بينهنّ مصارحة:

- أنت مجاهدة عظيمة يا (آمال)، فكيف مرت السنوات العشر من الاعتقال؟

سقطت الدمعة من عيني (آمال) وكأنها سمعت مالا تحب وقالت:

- بدون شك أن السجن صعب بل صعب جداً وخاصة أنه معركة مفتوحة لا تهدأ مع إدارة السجن التي لم تعطينا شيء، ولو كان تافه إلا بعد تضحيات تعودنا عليها، ولكن القضايا المعنوية لها أثرها الأكبر على صمود المعتقلات، أنا أتحمل كباقي المعتقلات قسوة السجن ولكني حتى اللحظة لم أتصور أنني مكثت في السجن عشر سنوات دون أن تكون قضية تحريرنا بأي وسيلة على رأس أولويات

المقاومة بكل فصائلها، هذا العتب لا يخص الأسيرات كونهنّ بنات على الرغم من مكانتهنّ الحساسة في قلب كل غيور، بل ويخص للأسف مئات الأسرى الذين أمضوا زهرات شبابهم بين القضبان ولا حياة لمن تنادي. احمدي الله يا (رندة) أن كل محكوميتك ستة أشهر وأوصيك أن لا تضيعها إلا في الفائدة.

ردت (رندة) بنبرة حزن تعاطفاً مع (آمال) وتضامناً معها:

- ستجدينني عند حسن ظنك يا أم تهاني ولكن بماذا تنصحينني أن أبدأ؟

بدت علامات الرضا والسعادة على وجه (آمال) لدى سماعها إجابة (رندة) ونصحتها بالقول:

- الثقافة يا ابنتي كالفاكهة تناولي منها ما تشتهيه، فالأخت (منى) تفيدك في اللغة العبرية، و(لارا) في الإنجليزية و(آلاء) في علم التجويد وتلاوة القرآن الكريم، و(سرية) في التاريخ وبإمكانك عن طريق (حنان) عاملة المردوان (القسم) أن تطلبي الكتاب الذي تحبين مطالعته لإحضاره من (أروى) عاملة المكتبة وهنّ متواجدات في عملهنّ خارج الغرفة معظم النهار.

شكرت (رندة) (آمال) على اهتمامها وبخجل سألتها:

- أنا مخطوبة يا (أم تهاني)، وخطيبي (رائد) على حد علمي موجود في سجن عسقلان فهل يمكن ترتيب لقاء ضروري معه؟

لم تشأ (آمال) التدخل في خصوصيات (رندة)، ولم تقف عند تلك الضرورة وبحكم تجربتها قالت:

- نعم يمكن ذلك بإحضاره إلى سجن تلموند وترتيب زيارة لعدة ساعات أو ما يزيد قليلاً من خلف شبك، ولكن المسألة ليست سهلة.

وأشارت بيدها إلى (منى) التي كانت مشغولة بكتابة طلبات المناضلات باللغة العبرية لتقوم (منال) بتقديمها إلى إدارة السجن ومتابعتها مع (رينات) ضابطة القسم، ونادت (آمال) (منى) وسألتها:

- ماذا تكتبين؟

أجابت (منى) وهي تمسح بقايا الحبر عن يدها:

- أكتب شكوى للمحكمة حول منع والد (ليلى) من الزيارة منذ حوالي ثلاثة أشهر.
- الله يعطيك العافية يا بنتي، ليتك تكتبين طلب زيارة خاصة للقاء (رندة) بخطيبها الموجود في سجن عسقلان

ومع شروق شمس يوم جديد، على صوت مكبر الصوت المزعج في منتصف القسم وتشابك المفاتيح، ودقاتها ببعضها، نهضت الأسيرات ليجهزن أنفسهن للعدد الذي يأتي ثلاث مرات يومياً مع الشروق والظهر وغياب الشمس.

وفي الغرفة الثانية من القسم حدثت مشادة بين (آلاء) وضابطة العدد المحاطة بثلاث سجانات الأمر الذي دعا (آمال) للحديث من خلف الباب المقفل:

- ماذا حدث يا (حنان)؟

أجابتها (حنان) بتوتر:

- الضابطة تصر على وقوف (مكرم) على العدد، وكما تعرفين فهي مريضة وبالأمس كانت عند طبيبة العيادة.

نادت (آمال) على الضابطة وأفسحت المجال لـ(منى) بجانبها للترجمة:

- هذه الأسيرة مريضة ولا تستطيع الوقوف وبإمكانك مراجعة العيادة والإطلاع على ملفها الطبي.

اقتنعت الضابطة بحجة (آمال) التي تستطيع دوماً بخبرتها حل معظم المشاكل التي تحدث في القسم بين الأسيرات والسجانات.

استقبلت (حنان) وجبة الإفطار التقليدية: (قطعة جبن صفراء لا تكفي حاجة طفل بعمر أربع سنوات أو علبة لبنة تقسم على أربع بنات)، فتناولت (آمال) الفطور وتناولت كوباً من الشاي واصطحبت (منى) ومجموعة الطلبات التي كتبتها لمدير السجن لمتابعتها مع ضابطة القسم.

ألقت (آمال) السلام على (أروى) المتواجدة في المكتبة و(سمية) العاملة في مغسلة القسم وأكملت طريقها لمكتب الضابطة (رينات) والذي يفصله عن ممر القسم بين الغرف باب حديدي على مقربة منه تقف سجانة تقوم بفتحه وغلقه عند الحاجة، كانت (آمال) تجيد استخدام الدارجة باللغة العبرية، فألقت التحية على الضابطة وبدأت معها بمناقشة الطلبات:

- هذا طلب زيارة خاصة لـ(رندة السيد) لمقابلة خطيبها المتواجد في سجن عسقلان.

تناولت الضابطة الطلب وتظاهرت بتجاهل الأسيرات على مكتبها وبدأت تكتب في دفتر يوميات عملها الاسم ورقم الهوية ونوع الطلب ووعدت بإحضار أجوبة عليها من المدير وهكذا حتى انتهت المقابلة.

كانت الصعوبات والممارسات وخطوات النضال والوضع الداخلي تتشابه بين السجون فحاول (رائد) التعود على حياة

السجن المحكوم بتفاهمات داخلية ولوائح اعتقالية، وقوانين تعسفية فرضتها إدارة السجن على المعتقلين، وكان معجباً بإنجازات الحركة الوطنية الأسيرة وتراثها الاعتقالي كتشكيل اللجنة الوطنية العامة التي تعنى بتنظيم الوضع الداخلي وصياغة الإرشادات وإنزال بيانات التوعية والتوجيه وحفظ الأسير وتثقفه وتعبئته للقدرة على القيام بأعباء المرحلة وصونه من استهداف أجهزة المخابرات وتحديد وسائل النضال للمطالب التي تتابعها لجنة الحوار في لقاءات دورية مع مدير السجن وضباط المخابرات والأمن فيه.. فداوم على ساعة الرياضة ما بين العدد الصباحي والفورة (النزهة) الصباحية، وهواية تنس الطاولة في الفورة المسائية واعتاد على انتظار صحن الأرز مع الكوسا أو الفاصوليا في كل وجبة غداء، وكانت الغرفة تضحك حينما يتسلمون حبة الفاكهة التي لا تشبه جنسها من الفاكهة إلا بالاسم، حتى شك الأسرى على سبيل المزاح أن هناك طواقم تعمل ليل نهار في مختبرات الزراعة لتهجين أشكال فاكهة بلا طعم لتجاوز حكم المحكمة بحق السجين فيها يومياً ومع هذا يمضي العام دون أن يذوقوا طعم الفاكهة في موسمها.

عاش (رائد) في غرفة بداخلها ثمانية أسرى مختلفين في العمر والسكن واللهجة والمستوى الاجتماعي والثقافي والاهتمام، ومع هذا أوجدوا فيما بينهم أدنى القواسم المشتركة داخل الغرفة التي تعتبر غرفة النوم والضيوف والمطبخ والمكتبة والمسجد، وتقرب من (أبي نعيم) الذي أمضى من سجنه خمسة وعشرين عاماً، تنقلت عائلته بتنقله معظم السجون الإسرائيلية وكان شاهدا على كل مراحل النضال للحركة الوطنية الأسيرة.

كان (رائد) يرى في قسمات وجه (أبي نعيم) كل هموم الشعب الفلسطيني ومعاناته ولو كان بيده الأمر ما تركه يغسل كأساً أو يحمل صحناً بعد الطعام، ولكن هيهات فـ(أبو نعيم) بخدمة نفسه كان أيضاً يربي المعتقلين الجدد على المبادرة والنظافة والمشاركة الجماعية.

كانت إدارة السجن تتفهم عادات وتقاليد ونظم حياة الأسرى الأمنيين الفلسطينيين في سجونها فمدحت نظافتهم ووحدتهم وعهودهم وإدارتهم الداخلية لأنفسهم مراراً عبر إعلامها، فكانوا مثلاً رائعاً ونموذجاً مميزاً لأسرى حركات التحرر الوطني والثوري في العالم.

شعر (رائد) بواجب التعلم من (أبي نعيم)، فصنع فنجانين من القهوة وجلس على سرير <<برش>> (أبي نعيم) ليتعرف على تاريخ السجون كمن يحاول فتح صفحات كتاب قديم ليكتشف مكنوناته وتساءل:

- هل كانت السجون على حالها اليوم قبل عشرين عاماً؟

بدت الابتسامة على وجه (أبي نعيم) التي نسيها من كثرة الهموم وأشعل سيجارة وكأنه يتنبأ بطول الحديث وبنبرة يملؤها الفخر قال:

- بالتأكيد لا يا بُني، فبفضل الله ثم بتضحيات ما يقارب مائة وسبعين شهيدا سقطوا في السجون دفاعاً عن كرامتنا تغير الحال من حياة إذلال تنقصنا فيها كل شروط الحياة إلى ما نحن عليه الآن.

سأله (رائد) باندهاش:

- كيف؟

- الشواهد كثيرة يا بُني ففي بدايات السجون كان بإمكان السجان بكل وقاحة مد يده على مناضل ليس إلا لأنه تحرك بشكل لا يرضي السجان، وكنا نتعرى أمام بعضنا في الحمامات، ولا نملك من الملابس إلا ما علينا، وغيار آخر ذا لون واحد وعليه ختم إدارة السجون. ونفرش الأرض

ببطانيات سوداء غير نظيفة بلا أسرة (أبراش) ولا وسائد، ما يقارب سبعين أسير لا يستطيع أحدنا التقلب في نومه لضيق المكان ولا يُسمح بالأدوات الكهربائية كالتلفاز والمذياع وبلاطة تسخين الطعام والمسجل والهواية وحتى الساعة، وخضنا الكثير من الخطوات النضالية حتى وصلنا إلى ما نحن فيه الآن.

استصعب (رائد) إمكانية العيش في الظروف التي وصفها (أبو نعيم) وشعر بعظيم تضحيات آلاف الأسرى من قبله وقال معقباً:

- ما هي أوراق الأسير النضالية وهو هنا بلا حول ولا قوة؟
- ثمة شيء يجب أن تعرفه وهو أن الفلسطيني مقاوماً أو أسيراً لا ييأس، فأوجد الأسرى باجتهادهم أشكالاً للنضال من جنس المطلب.

صمت (رائد) برهة وحينما عجز عن التحليل سأل:

- لم أفهم، كيف؟

تناول (أبو نعيم) الوسادة ووضعها على فخديه وسند رأسه بيديه وقال:

- سأشرح لك، كنا نخرج ساعة نزهة (فورة) واحدة في اليوم، وحينما قررنا زيادتها مكثنا في الغرف وأضربنا عنها مئة وثلاثون يوماً متتالية حتى خشيت إدارة السجن انفجار المعتقلين في وجه السجان بعد ضغط متراكم، وتم تحسين شروط الزيارة بالامتناع عنها وتضامن الأهالي معنا باعتصامات الصليب والمظاهرات، وتحسين العلاج الطبي بعد أن امتنع المرضى عن استلام الأدوية المسكنة التي كانوا يتناولونها وهنالك مجموعة من المطالب كالسرير والفرشة والأدوات الكهربائية وتحسن الطعام بالكم والنوع والدراسة الجامعية وفرض شكل من التعامل المقبول بين إدارة السجن وقيادة المعتقلين وإجراء العمليات للمرضى وإغلاق العزل لم تُحل إلا عبر سلسلة من الإضرابات الإستراتيجية والوجبات المتفرقة ومعركة الأمعاء الخاوية التي راح ضحيتها عشرات الأسرى.
- أعلم أنني أثقلت عليك، ولكن ثمة شيء واحد يقلقني ولم أجد له إجابة، فحتى اللحظة لم أعرف كيف اعتقلت ومن السبب؟

قال (أبو نعيم) وهو ينظر إلى الساعة حيث أن موعد نومه قد اقترب:

- لا تستعجب من هذا الأمر، فكل شيء ينفصل كما حبات المسبحة التي بين يديك، والكثير من تلك الأسرار تم حلها باعترافات العملاء الذين أُجري التحقيق معهم في السجون وخارجها، وكُن على علم بأن الكثيرين من الشرفاء ظُلموا من بينهم لسوء تقدير الجهلاء واتضح فيما بعد بأنهم أشرف من الشرف نفسه.

فرح (رائد) وهو يستقبل رسالة مكتوبة من صديقه (إبراهيم) عن طريق الزيارة، فطمأنه عن حاله وعاهده على تواصل المقاومة وطلب منه المراسلة وأكثر ما أثر في نفس (رائد) شعور (إبراهيم) بالوحدة بعد اعتقاله هو و(رفعت)، هروب أقرب الناس منه خوفاً على أنفسهم ومصالحهم، فلا مأوى ولا أنيس ولا لقمة طيبة أو راحة بال واستقرار، أحس (رائد) من رسالة (إبراهيم) أن المعاناة متقاربة رغم اختلاف الحال.

انتهت الانتفاضة بعد مؤتمر مدريد واتفاقية أوسلو الذي اختلف عليه الفلسطينيون بين مؤيد ومعارض وسيطرت السلطة على مراكز المدن التي أصبحت على غير حالها زمن الاحتلال، ففتحت الشوارع وبنيت الأبراج السكنية والمؤسسات والمطار وتم تحديث مؤسسات التعليم والصحة، وتحرير آلاف

الأسرى وبقي مئات من ذوي الأحكام العالية والمعارضة وعاد أعداد من اللاجئين إلى فلسطين.

التقى المحامي بـ(رائد) و(رفعت) في قاعة المحكمة العسكرية التي تمثل الجلاد والحكم وعلى بعد أمتار منهم كانت تجلس (نسرين) و(أم خالد)، فتبادلوا الإشارات وبعض الكلمات، وفي تلك الأثناء بدأ المحامي الحديث مع (رائد):

- النيابة تطلب لك خمسة عشر عاماً، وأرى أن نؤجل المحكمة للوصول إلى عشرة سنوات، أما (رفعت) فأقل.

كان للخبر وقع الصاعقة على (رفعت) و(رائد) الذين اعتقدا أن الحكم سيكون أقل بكثير لكنهما لم يلبثا أن وافقا المحامي على التأجيل.

أشار (رائد) لأمه التي بكت وهي تراه مقيداً بالسلاسل واستطاعت (نسرين) أن تطمئنهما على أحوال الأهل وأوصتهما بأنفسهما خيراً وهي تلوح لهم بيديها من بعيد أثناء خروجها من قاعة المحكمة.

أسرع المحامي باتجاه (رائد) قبل أن يترك القاعة وكأنه تذكر شيئاً مهماً وناداه:

- بالأمس كنت في زيارة لسجن التلموند، و(رندة) فيه وتهديك السلام وتطلب منك أن تقدم طلباً للقيام بزيارة خاصة لها.

سأله (رائد) بصوتٍ مملوء بالشوق والقلق في آن:

- وكيف هي؟
- هي بخير وتسلم عليك وتنتظر رداً على طلب قدمته للموافقة على زيارتك لها.

خرجت (آمال) للقاء (رينات) ضابطة القسم بعد أسبوع من لقائها السابق وكانت تحمل ردوداً على الطلبات التي تم تقديمها.

قالت الضابطة:

- (رندة حميد السيد)، لها موافقة زيارة خاصة مع خطيبها (رائد العسقلاني) لمدة ساعة إذا ما نال موافقة مدير سجن عسقلان على طلبه هناك.

ثم أكملت الردود على باقي الطلبات.

عادت (آمال) إلى القسم لتبشر (رندة) بالموافقة، وقبل الوصول إلى باب الغرفة دخل القسم عدد من السجانات لتفتيش الغرف.. نادت (آمال) على الأسيرات بصوتٍ عالٍ:

- لا تسمحنّ بدخول السجانات للغرف، وإخراجكنّ منها حتى تجهزنّ أنفسكنّ بشكل كامل.

كانت (آمال) تدرك خطورة القرار بهذه الصراحة، ولكنها كانت تدرك أكثر أن هناك من الأسيرات من كنّ نائمات أو غير مستعدات للخروج الفوري قبل تجهيز أنفسهنّ.

حاولت السجانات مداهمة الغرف متجاوزات قرار (آمال) الأمر الذي لاقى رفضاً واستنفاراً ضدهنّ من الأسيرات، شعرت الضابطة بخطورة الموقف فعلت صفارات الإنذار على مستوى السجن، وحضرت قوات كبيرة من المجندات يحملنّ الهراوات وقنابل الغاز، وقيدنّ (آمال) و(حنان) وأنزلنهنّ للسنوك (الحبس الانفرادي) مما أدى إلى تأجيج الموقف وزيادة التوتر.

كررت السجانات محاولتهنّ لدخول الغرف فتصدت لهنّ الأسيرات بالممتلكات الخاصة وأدوات وأواني الغرفة من كؤوس زجاجية وصحون وملاعق ومعلبات وقطع من الصابون.. أعطت الضابطة أمراً لرش الغاز المسيل للدموع على الأسيرات، فعلت أصوات التكبير من داخل كافة غرف القسم دون استثناء، واختلط الصوت بالسعال الذي أشار مع انخفاضه رويداً رويداً لانهيار قدرة الأسيرات على المزيد من الصمود في لحظات تمنى بعضهنّ الشهادة على الحياة،

لشعورهنّ بخروج أرواحهنّ مراراً وتكراراً من أجسادهنّ في محاولة للخلاص من الخنق الرهيب من الغاز بكميات كبيرة جداً في غرف صغيرة شبه مغلقة بالكامل.

استطاعت عشرات السجانات اقتحام الغرف والاعتداء بالهروات على كل مجاهدة واصلت مقاومتها وتم تفتيشهنّ وإخراجهنّ للفورة وإجراء تفتيش انتقامي للغرف بخلط كل ملابس الأسيرات على بعض ثم نثر السكر على الأرز على الزيت وتم سحب التلفزيون ومعظم الأدوات الكهربائية، ثم أعادوهن للغرف.

لم يتحقق الاستقرار في القسم بعد التفتيش وبدأت الأسيرات بالاحتجاج على ما حصل وإرجاع وجبات الطعام تضامناً مع (آمال) و(حنان) حتى تم إخراجهنّ من السنوك وعودتهنّ للقسم وإعادة كل ما تم سحبه.

تضامن الأسرى في السجون مع أخواتهم المناضلات في التلموند على أثر القمع الذي تعرضت له الأسيرات، وزاد الوضع توتراً في السجون إثر قرار التجرد الكامل من الملابس عند نقل أو سفر أو عودة أي أسير، الشيء الذي رفضه الأسرى وناضلوا لإبطاله.

سيطر القلق على قلب (رائد) كما الشوق لخطيبته (رندة) وكان سعيداً وهو يستقبل الموافقة على زيارتها من مدير السجن الشيء الذي تصادف مع اقتراب الإفراج عنها بعد أيام قليلة.

دخل (رائد) غرفة الزيارة بصحبة سجان ينتظر بلهفة خطيبته (رندة) التي أعاقت وصولها (آمال) التي كانت تحمل رسائل تنسيقية شفوية مع الأسرى في السجون الأخرى.. تسارعت دقات قلب (رائد) حينما أطلت عليه (رندة) عبر ممر طويل ينتهي بالجانب الأخر من الشبك الذي يفصلهما.

وقف (رائد) بعفوية عند صول (رندة) التي تحاملت على نفسها وتظاهرت بالقوة حتى تطمئنه، وجلست بجانبها سجانة بدأت بالحديث مع السجان باللغة العبرية.

ألقت (رندة) السلام على (رائد) فبادلها وأضاف عليه:

- وعليكم السلام ورحمة الله، الحمد لله على سلامتك يا (رندة).

لم تقوى (رندة) على المزيد فسقطت دمعة على وجنتيها وأجابت.

- لا تقلق عليّ يا (رائد)، فأنا بصحبة الأسيرات بخير ومعنوياتي عالية وهنّ يحملنّ الأخوة التحية ويطمئنهم بأن

الأوضاع عادت إلى ما كانت عليه قبل القمع، سمعت من المحامي أن النيابة طلبت لك خمسة عشر عاماً.

صمت (رائد) قليلاً وقبض على الشبك بأصابعه وقال:

- هذا ما يحتم عليّ الحديث في موضوع لم أكره أن أتحدث بمثله في حياتي، فأنا في أفضل الأحوال سأحاكم عشر سنين وأنت ستتحررين بعد أيام قليلة، ومن غير المنطقي دوام خطبتنا ولو كان لديك الاستعداد للانتظار فلن ترضى عائلتك بذلك، فأنا تسببت لك بالأذى، ولن أسمح لنفسي بالمزيد من الضرر لك، فأنت إنسانة رائعة وآلاف من الشباب يتمنون الارتباط بك.

قاطعته (رندة) محتجة:

- ولكني أفضلك أنت ولا أحد سواك يا (رائد)، ثم لماذا تطلب الانفصال وأختك (نسرين) ستبقى على عهدها مع صديقك (رفعت) الذي يشاركك نفس القضية، ولا تنسى أن الوفد الفلسطيني يطالب بتحرير الأسرى في المفاوضات.

عقب (رائد) على حديثها بالقول:

- أشكر لك إخلاصك وصدقك يا (رندة)، فهذه أخلاق كل أصيلة وعفيفة مثلك، ولكن حالنا بحاجة لتحكيم العقل لا العواطف، وافرضي أن المفاوضات فشلت ومسيرة التسوية

تعرقلت، فهل يُعقل تعلق كل أمالنا عليها؟ وللعلم فظروفك تختلف عن (نسرين) لأن (نسرين) لها من يساندها للانتظار، أما أنت فمن سيقنع أمك بهذا الأمر؟ وللعلم فبنود (رفعت) أخف من بنودي لأنه اعترف أنه سائق للسيارة التي أقلتنا لتنفيذ العملية وهذا سيخفف عنه.

بكت (رندة) بعد أن شعرت باليأس أمام قناعة (رائد) الذي اختار الانفصال حباً فيها وحرصاً على مصلحتها، ووهي تعلم أن هذا كان أصعب خيار في حياته، ثم ودّع (رائد) خطيبته وكأنه يراها للمرة الأخيرة وقال:

- سامحيني يا أعز مخلوقة على قلبي، وخذي بالك من نفسك، ومبارك مقدماً الإفراج عنك، ولا تنسيني من الدعاء.

وعند انتهاء اللقاء الذي لم تجد فيه (رندة) إلا البكاء، تناولت مسبحة صنعتها بيدها من نواء الزيتون، فأهدتها له وأوصته بدوام الذكر لله والتعلق به.

عادت (رندة) إلى القسم مكسورة الجناح والخاطر، وكأنها تمنّت عدم الموافقة على طلب الزيارة، فأحاطتها (أم تهاني) بالعطف والحبو الحنان في محاولة للتخفيف عنها وقالت:

- لا تبك يا ابنتي، فقرار (رائد) ينُم عن رجولة وشهامة، وإنسان محب ومخلص، فهو اختار طريقه بنفسه ولا يريد

تعذيبك معه، أنا على يقين بأنه الآن مقهور كما أنت مهمومة، ولكن هذا قدركما، فاحملي له في ذاكرتك صورة الإنسان الصادق الشجاع، وادعي له بالتخفيف والفرج.

مرت أيام قليلة على حزن (رندة) الذي اختلط بمشاعر الفرح يوم الإفراج عنها، ودعت (رندة) كافة رفيقات السجن المناضلات في كل غرف القسم، ولكنها لم تتمالك إخفاء مشاعر الفراق وهي تودع (آمال) التي لفتها بذراعيها عناقاً وأوصتها بنفسها، حملت حنان حقيبة (رندة) ورافقتها إلى باب القسم تجاره مكتب الضابطة التي ستنهي معها آخر الإجراءات والتوقيع على استلام الأمانات فكان الفراق مراً بين الصديقتين اللتان تواعدتا على دوام التواصل والمراسلة والزيارة بعد الإفراج.

استقبلت (رندة) مئات المهنئين والمهنئات من الأقارب والعائلة والصديقات، وشعرت أنها تحلق في السماء من شدة الفرح، وما رأته من حب الناس واحترامهم لها ومكانتها العالية بين الجميع.

عاد المهندس (غريب) بعد أن أكمل دراسته في أمريكيا فاستقبلته أمه بالفخر، وبعد أسبوع اجتمع بخالته (أم أشرف) مبدياً رغبته بالتقدم ثانية لـ(رندة).. رحبت (أم أشرف) بطلبه

وطلبت منه أن يمهلها وقتاً قصيراً لكي تقنع (رندة)، وقد كانت (أم أشرف) تتحدث مع (رندة) يومياً عن هذا الموضوع، لكن (رندة) كانت مصرة على الرفض بحجة أنها لا زالت على عصمة رجل آخر.

استقبلت (رندة) وكالة الطلاق عبر الصليب الأحمر بالمزيد من الأسى والألم، فهذه الورقة كانت الأصعب على (رائد) و(رندة) معاً، والحجة القاطعة أمام (أم أشرف) لحسم موضوع (غريب) الذي بات أكثر اختلاطاً بالعائلة والحضور للبيت بحجة السهر مع صديقه (أشرف).

وافقت (رندة) مكرهة وتحت ضغط من عائلتها وكثرة إلحاح من أمها، لكنها اشترطت أن يتم تأجيل الزفاف ثلاث سنوات كفيلة بإكمال تعليمها وتخرجها من الجامعة، وقد قبل (غريب) بهذا الشرط على مضض.

دعا الضابط (كوهين) (غريب) لمقابلة بعد عودته في الإدارة المدنية ودار بينهما هذا الحديث:

- الحمد لله على سلامتك يا (غريب) ومبروك الشهادة والخطوبة.

بدا التوتر والقلق واضحاً على (غريب) من سبب المقابلة التي كره عقدها وأجاب:

- الله يسلمك ويبارك فيك.

قال الضابط:

- من لقي أحبابه نسي أصحابه.

رد (غريب):

- ماذا تقصد؟

- أقصد أننا سنبقى أصحاب ولا تنس أنك أصبحت مهندساً، بفضل موافقتنا على سفرك وأنك عشت كالملوك طوال وجودك في أمريكيا بفضل المرتب الذي كان يصلك منا على رقم حسابك، واليوم حصلت على محبوبتك بعد طلاقها من (رائد).

شعر (غريب) بالورطة، وكأن الضابط يهدده بطريقة غير مباشرة، فقال:

- والمطلوب؟

ابتسم الضابط ابتسامة خبيثة وقدم سيجارة لـ(غريب) وبينما هو يشعل السيجارة له قال:

- يعجبني ذكاؤك يا باش مهندس، فأمامك واحدة من اثنتين: إما أن نبقى أصدقاء وإن لم نصل للمحبة وبقدر عطائك سنعطيك، أو أن تقاطعنا فنقاطعك، وحينها ستجد

نفسك معلقاً على أحد أعمدة الكهرباء إن نحن كشفنا أمرك وعرفوا بأنك أنت الذي سلمت (رائد) و(رفعت).

ثم أكمل الضابط بالقول:

- لا تخف يا (غريب) فلن نفسد عليك فرحتك بالخطوبة، وسيكون لنا لقاء بعد أسبوع في مستوطنة رفيح يام حتى لا يشتبه أحد بك من خلال تكرار ترددك على مكتب الإدارة المدنية، وهذا رقم هاتف يمكن الاتصال به إن احتجت لأي شيء.

وأخرج مبلغاً مالياً كبيراً من جيبه وأضاف:

- هذا المبلغ هدية خطوبتك وسيبقى مرتبك على رقم حسابك كما كنت أيام الدراسة.

عاد (غريب) من المقابلة ضائع فاقد الإرادة مشوش التفكير غير قادر على مصارحة أحد، وعلى غير عادته انقطع عن زيارة بيت خالته ومقابلة (أشرف)، وبقي وحيداً يفكر في مستقبله والمستنقع الذي غرق فيه.

نهض (رفعت) من نومه على صوت أنات مرض (أبي نعيم) فنزل من برشه (سريره) وأسنده:

- ما بك يا (أبا نعيم)؟
- أشعر بألم شديد في رأسي.

- سأنادي السوهير (السجان) ليستدعي الحوفيش (الطبيب).
- لا تتعب نفسك يا (رفعت) فالساعة متأخرة ولن يرد عليك في منتصف الليل.

اتجه (رفعت) نحو الباب وأخذ ينادي على السجان بأعلى صوته ففاق كل الأسرى من نومهم يتساءلون:

- ماذا حدث يا (رفعت)؟
- (أبو نعيم) مريض والسجان يتظاهر بعدم السماع.

نهض معظم الأسرى في القسم على صوت (رفعت)، وحينما علموا بمرض (أبي نعيم) أخذ الجميع ينادي السجان الذي تجاهل النداءات متعمداً.. اقترب (رائد) من الباب وأخذ يضرب الباب بكل قوته بيديه وقدميه واشترك معه كل القسم الذي ضج بالفوضى والصراخ.. حضر السجان مرغماً يتقصى عن السبب، فأخبرته الغرفة الأولى بمرض (أبي نعيم) فذهب للمكتب واتصل بالضابط المناوب والممرض.

مرت ربع ساعة دون حضور أحد، وحينما اشتد المرض على (أبي نعيم) جدد الأسرى صراخهم ودقهم على الباب، فاضطرت الإدارة للحضور بقوة الغاز والهراوات والكمامات.. اتجه الضابط نحو ممثل المعتقل الذي احتج على السجان

والعيادة لتجاهلهم وتأخرهم عن حالة مرضية قد تؤدي للوفاة واتهم الممرض بالإهمال وحمله المسئولية عن حياة الأسير المريض.

فتحت القوة باب الغرفة وحملوا (أبا نعيم) للعيادة، وفي الصباح عاد نادماً على الخروج لأنه لم يتلقى أي علاج.

اتهمت إدارة السجن (رفعت) و(رائد) و(أبا نعيم) بالتحريض وزرع الفوضى والإخلال باستقرار السجن ونقلتهم لسجن نفحة عقاباً لهم.

في سجن نفحة استقبلهم ضابط المخابرات بالتهديد والوعيد وأدخلهم لغرفة تتسع لثمانية أسرى استقبلهم فيها (عماد) و(باسل) و(ماهر) و(حسام).

كان (عماد) شاباً مثقفاً.. طوال يومه يطالع الصحف ويقلب صفحات الكتب، ويصوغ بيانات التوجيه للأسرى ويعد الجلسات الثقافية ويقوم عليها، أما (باسل) فهو أسير مصري من أسرى الدوريات العرب الذين شاركوا الفلسطينيين مقاومة الاحتلال، ودائماً يضحك ويخلط المزاح بالجد ويصعب التفريق بينهما في غالب الأحيان، أما (ماهر) فهو شاب مبادر وخجول يعيش دائماً خارج السجن وقد ينادي عليه البعض مراراً أثناء شرود ذهنه فلا يسمعهم ومشهور بين الأسرى على

قدرته تفسير الأحلام، أما (حسام) فدائم الانشغال بقضايا الأسرى ومتابعة أمورهم ودائن التنسيق مع السجون الأخرى لتوحيد الخطوات النضالية والاعتقالية وبمثابة الموجه العام في القلعة ككل.

بعد أشهر من التعارف والتفاعل بين الأسرى تحولوا لأسرة متماسكة وأخوة متحابين يجمعهم الهم والهدف والمعاناة الواحدة.

نزل الصديقان (رفعت) و(رائد) إلى المحكمة العسكرية، ولم يُفاجأ أي منهما بالحكم المتوقع.. فعاد (رائد) باثني عشر عاماً أما (رفعت) فلقد حكم ثماني سنوات.

كانت أول زيارة لذويهما مليئة بالأحزان وظهر على (أم خالد) التعب والضعف وبقيت طوال الزيارة تدعوا لـ(رائد) بالرضا والصبر والفرج، في حين كان (رفعت) يوصي أمه بـ(نسرين) ويوصي (نسرين) بتعليمها والحفاظ على نفسها.. وعند انتهاء الوقت المخصص للزيارة شعرت (أم خالد) بعذابات الفراق وكأن جسدها ينفصل عن قلبها الذي تواجد مع ابنها في محنته وآلامه وحين الوداع سأل (رائد) عن (رندة) ليطمئن عليها، فأخبرته عن خطبتها من (غريب) فبعث لها السلام وتمنى لها التوفيق.

لم يستطع (رائد) نسيان (رندة) التي حمل لها في قلبه كل الحب، كان يتذكرها كلما تحركت بين أصابعه مسبحة نوى الزيتون التي لم تفارقه في أخريات الليل وبدايات النهار، وبقيت (رندة) على ذكرى طيبة لم تقو على التخلص منها كلما شاهدت العقد الذي أهداه لها والذي يحمل أول حرف من اسميهما.

تتالت أفواج المحررين من الأسرى في أعقاب اتفاقية سلام تبعت اتفاق أوسلو ولكنها أبعد من قضايا (رفعت) و(رائد) حتى باتا يفكران في طريقة أخرى للتخلص من السجن وعذاباته.

استقبلت (آمال) وفداً من الصليب الأحمر جاء ليطلع على شروط حياة الأسيرات في سجنهنّ فشرحت لهم عن الممارسات اللاإنسانية التي تتعارض مع المواثيق الدولية وقوانين حقوق الإنسان وسلمتهم قائمة مطالب طويلة تنقص الأسيرات وفق اتفاقية جنيف للتعامل مع أسرى الحرب.. وتسلمت منهم عشرات الكتب والمجلات الجديدة، وبعض الرسائل والتوكيلات، وبعض الألعاب كالشطرنج والدومنو والسكرابل وطاولات الزهر، وبعد انتهاء اللقاء بقليل ورد خبر يقضي بنية إسرائيل للإفراج

عـن كـل الأسـيرات عـدا أربعـة مـنهنّ علـيهنّ قضـايا قتـل ومشاركة.

حملت (منى) الخبر لـ(آمال) حفاظاً على شعور المتبقيات وكمحاولة لتنسيق خطوة نضالية تضامنية تحدد مصير الجميع بـلا تفرقـة.. عقدت (أم تهـاني) جلسـة نضـالية موسـعة لمناقشـة خبـر الإفـراج عـنهنّ بعـد التأكـد مـن صـحته، وانتهـت الجلسـة بموقف جماعي موحد وواضح لا يحتمل اللبس فيه أو التفسير وتعاهدت الأسيرات عليه.

جـاء موعـد الإفـراج وفـق الاتفاقيـة وحضـرت إدارة السـجن لتخـرج الأسـيرات إلـى حـافلات سـتقلهنّ لقطـاع غـزة والضـفة الغربيـة وجـزء مـنهنّ خـارج فلسـطين، وكـان الموقـف مصـيرياً وحاسـماً ودقيقـاً سـيحيي المعظـم بعـد مـوات، وسـتخرج فيـه الأسـيرات مـن مقـابر الأحيـاء إلـى عـالم الحريـة ومتـاع الحيـاة الدنيا والتخلص من العذاب والحرمان.

خرجت (آمال) و(منى) يحملنّ الموقف إلى ضابطة السجن وسألنها:

- لن نسأل عن المفرج عنهنّ بل من هنّ المتبقيات؟

توقعت الضابطة أن الفرحة ستعم القسم لأنه من غير الممكن المفاوضة على الحرية وقالت:

- سيفرج عن كل الأسيرات عدا (منى) لأنها تحمل هوية إسرائيلية، و(ملك) و(لارا) لأنهما ارتكبتا عمليات قتل و(آلاء) بسبب المشاركة بالقتل.

ردت عليها (آمال) بازدراء وبموقف تاريخي تعمد بالتضحية والوحدة:

- لن تخرج أية أسيرة من القسم إلا بضمان التحرير لجميع الأسيرات وأمامكم أحد هذين الخيارين.. البقاء على سجن الجميع أو تحرير الجميع.

تغير وجه الضابطة التي لم تصدق أن هنالك إنسان في الحياة قد يفاوض على حريته وميلاده الجديد في الدنيا لأجل آخر ولو كان أخوه.

لم يكن موقف الأسيرات مناورة تكتيكية يمكن الوصول فيه لحلول وسط، ولم يكن خطوة احتجاجية قد تفوت بتغير الحال أو مجاملة عابرة وتنتهي بشكر الأسيرات الأربع لصنيع الباقيات.. وبقي الباب مفتوحا أمام الأسيرات لسنة كاملة لم تكن كفيلة بكسر إرادتهنّ أو ثني عزيمتهنّ حتى اضطرت إسرائيل للإفراج عن كل الأسيرات دفعة واحدة فسطرنّ بصبرهنّ أعظم آيات العز والفخار.

وجد (غريب) نفسه في مستنقع مملوء بالقاذورات، بعد أن أجبره الضابط (كوهين) على تقديم عشرات الخدمات لصالح المخابرات الإسرائيلية، حتى أصبح على رأس شبكة من العملاء في قطاع غزة لم تترك وسيلة تدمير واحدة للشعب الفلسطيني، فقاموا بمراقبة وتصفية مجاهدين مطلوبين من المقاومة، وأسقطت المئات من الشباب والفتيات في الرذيلة والعمالة وسوء الأخلاق والإدمان على المخدرات بأنواعها.

كان خطر العملاء على المقاومين والشعب الفلسطيني أشد من خطر الاحتلال الذي أوجدهم، فتكلفوا بمهمات لم يستطع الاحتلال بكل قوته تنفيذها، وبالتالي كان هؤلاء العملاء هدفاً لرجال المقاومة التي كشفت للشعب خطورتهم.

أشار (باسل) إلى عش العصافير تحت شبك الفورة العلوي وقال لـ(رفعت):

- أرى أن عصافير هذا العش مجانين فما رأيك؟

ضحك (رفعت) بصوتٍ عالٍ أسمع كل من كان حوله وأجاب بسخرية:

- للأمانة أرى أن المجنون من ينعت العصافير بالجنون.
- لا تتهمني يا (رفعت) قبل أن أوضح لك، بالله عليك هل يُعقل أن تترك هذه العصافير كل مواطن الجمال في

الحياة من شجر وينابيع وخضرة وشواطئ ومتنزهات وجبال ويأتي للعيش في سجن وسط صحراء قاحلة.

وما هي إلا لحظات حتى رقع عصفور فرخ صغير لم يغطي جلده الريش، فأسرع (باسل) نحوه مشفقاً وأخذه للغرفة.

كثرت الآراء في كيفية التعامل مع هذا العصفور الصغير، واحتار الشباب في كيفية الحفاظ على حياته حتى يستطيع الطيران فيحرروه تفاؤلاً بتحريرهم.

قال (باسل):

- أنا سأصنع له مأوى مزخرف من الحرير والخرز.

وقال (أبو نعيم):

- اتركوا أكله وشربه لي لأنه لا يستطيع الأكل والشرب بمفرده.

أما (رائد) فقال:

- أنا سأخفيه عن أعين السجانين أثناء الخروج إلى الفورة، وأوقات التفتيش.

كان العصفور يكبر تحت عيون الأسرى ويتسلون به، وحينما كبر ونما ريشه وسار يأكل ويشرب لوحده ويطير في الغرفة وعلى أكتاف الأسرى وكأنه واحد منهم فأحبوه وألفهم.. وضع له (باسل) ما يشبه العش أعلى شباك الغرفة بين

صفائح الحديد والأسلاك حينما وصل لقدرته على الطيران، فتعود العصفور أن يحلق خارج الغرفة ثم العودة إليها في منتصف النهار والنوم في عشه باقي الليل.

كان (باسل) يتمنى لهذا العصفور لو عاش في مكان أجمل ويخاطبه بالقول:

- هذا ما جناه عليك أبواك وأتمنى أن لا تجنيه على أحد من بعدك.

كان (ماهر) يشرد بفكره دوما بعد صلاة الجمعة، وكأنه خارج السجن وإن تحدث إليه أحد لا يسمعه ويدو عليه الحزن وغصة تحتاج لتفسير وإذا بـ(رائد) يدنو منه ويقول:

- اللي واخذ بالك يتهنى بيه يا (ماهر)!.. لأين وصلت؟

التفت إليه (ماهر) وبدا وكأنه أفاق من حلمه وأجاب:

- الله يسامحك يا (رائد)، فقد أعدتني إلى السجن بعد أن كنت في البيت مع والديّ وإخواني وأخواتي الصغار أنادي على هذا وانهر ذاك وأمامنا الكانون نشوي اللحم ونأكل ونشرب ونستمتع كما كل جمعة في هذا الوقت.

شعر (رائد) بالذنب وكأنه أزعج رفيقه وقال:

- ألم تنسَّ هذه المواقف بعد سنين من الاعتقال؟

تنهد ماهر وكأنه ينكر على (رائد) سؤاله وأجاب:

- وهل تتوقع أنهم نسوني في هذه اللحظات، بالتأكيد لا يا صديقي، وأنا لم أنس من لم ينسني، فالحر لا ينسى وُدّ لحظة، فكيف بسنين عشنا فيها أجمل الذكريات وأروع اللحظات.

انقطع (رائد) عن (ماهر) الذي كان لا يزال يتحدث، وشرد بذهنه بعيداً نحو أهله و(رندة)، وزيارته لها في ذلك اليوم وتنهد بجملة اعتاد أن يرددها كلما ضاقت عليه الدنيا في السجن:

- آه يا قلب لا تحزن.

ثم أضاف:

- ومن سمعك يا (ماهر)!

مرت ثلاث سنوات كثلاثين ما بين آلام السجن وحرمانه وعذاباته وآمال الفرج وإمكانية العودة للحرية والحياة والعيش كباقي الناس.

توسع (رائد) بالمطالعة وتنافس بثقافته مع (عماد) الذي تبحر فيها في كل المجالات، وقبل الغروب ككل يوم خميس دعا موجه الغرفة الجميع لجلسة سياسية يتم تحديد موضوعها قبل أسبوع ليستعد الجميع لمناقشة هذا الموضوع وتحليله.

تناول عماد قصاصة ورق صغيرة من جيب قميصه البني المختوم بأحرف مصلحة السجون وافتتح الجلسة:

- بسم الله الرحمن الرحيم.. اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً وبعد: تعلمون أن موضوع الجلسة هو مبرر موقف الغموض الذي تتبناه إسرائيل في قضية السلاح النووي، نعم إن بريطانيا أعطت وعداً للصهاينة لإقامة دولة يهودية في فلسطين وهذا ما حصل، وأن أمريكيا الحليف الاستراتيجي الحاضر لهذه الدولة والحامية لها، ولكن الذي لا يعلمه الكثيرون أن من زود إسرائيل بالسلاح النووي وفق اتفاقية سرية في نهاية الخمسينات ولم يكشف عن بنود تلك الاتفاقية حتى اليوم هي فرنسا.. فالجميع على يقين بأن إسرائيل تمتلك ما لا يقل عن ثلاثمائة رأس نووي ولكن إسرائيل نفسها لا تعترف، كما أنها لا تنكر هذا الأمر، ولا زالت على هذا الموقف حتى يومنا هذا، ومع أن هذه السياسة مخالفة للديمقراطية فإن الغريب أن الرقابة والصحافة والسياسيين وأعضاء في الكنيست يرضون بسياسة الغموض كحاجة أمنية مقدسة، إن كانوا مؤيدين أو معارضين.

صمت قليلا ثم تابع:

- والسؤال الآن: إذا كانت هذه السياسة داخلية فلماذا لا ينكرها عليهم العالم؟

رفع (باسل) يده يطلب الحديث فأومأ له (عماد) بالموافقة فسأل:

- أرجو توضيح كلمة " ينكرها" ومن تقصد بالعالم؟

كانت المناقشة علمية ومنهجية وجدية، وكأن الحوار يدور بين أساتذة وأكاديميين في ندوة متخصصة أو مؤتمر، وليس بين مجموعة أسرى داخل غرفة معتمة، وهنا أجاب (عماد):

- أعني بـ " ينكرها " أي يعارضها أو ينتقد تلك السياسة في هذا الموضوع الذي وجد سرعة انتقاد لدول أخرى من العالم، كإيران والعراق في منطقتنا، وأقصد بالعالم على الأقل أمريكيا والاتحاد السوفيتي سابقاً وكذلك الدول العربية التي لها علاقة بهذا الشأن.

أخذ البعض بوضع نقاط وملاحظات على المادة التي تم تحضيرها، وبدأ النقاش بـ(أبي نعيم):

- جميعنا يعلم أن هناك اتفاقيات دولية وقعت عليها دول على رأسها أمريكيا والاتحاد السوفيتي تقضي بعدم انتشار السلاح النووي، هذه الاتفاقيات وقعت في نهاية الستينات وكون إسرائيل حليفة أمريكيا الاستراتيجي في المنطقة فمن غير الممكن أن أمريكيا ستدخل مواجهة سياسية مع حليفتها، كما أن ممارسة أي نوع من الضغط لإجبارها

لتتصاع للجنة التفتيش الدولية قد تجردها من انجازاتها وممتلكاتها النووية.. لذا فأمريكيا استحسنت من إسرائيل سياسة الغموض بعدم الاعتراف بامتلاك السلاح النووي، رغم اليقين من وجوده، وبهذا تحررت أمريكيا من الحرج الدولي باتهامها بالتمييز وحافظت على علاقة متينة بحليفتها المدللة في المنطقة.

شطب (عماد) بقلمه أول نقطة في القصاصة الورقية التي بين يديه وأضاف متسائلاً:

- إذا كان السكوت الأمريكي يحررها من الضغط الدولي والمواجهة السياسية مع حليفاتها فما سبب الاستحسان السوفيتي لهذه السياسة؟

وما أن توقف (عماد) عن كلامه حتى سارع (رائد) بالإجابة:

- عندما كانت ولا زالت أمريكيا حليفة إسرائيل الإستراتيجية في المنطقة، كان الاتحاد السوفيتي كذلك حليفاً للعرب طوال فترة ما يسمى بالحرب الباردة، وفي حال إعلان إسرائيل عن اعترافها بامتلاك السلاح النووي سيقع السوفيت بذلك في حرج شديد مع العرب الذين سيطالبون بالتسلح النووي على غرار إسرائيل أو تجريدها منه الشيء المنافي للسياسة الداخلية للاتحاد السوفيتي

وللاتفاقيات المبرمة آنذاك وسيحرره أيضاً من المواجهة السياسية مع أمريكيا التي لن تقبل بفرض عقوبات دولية على إسرائيل لتجريدها من السلاح النووي.

أكمل (عماد) بقية أسئلته مع انتهاء (رائد) فقال:

- إذا وجدت سياسة الغموض استحساناً أمريكياً وسوفيتياً فما مصلحة الدول العربية من السكوت عن التسلح النووي الإسرائيلي منذ عدة عقود؟

رفع (باسل) و(ماهر) أيديهما للإجابة فأشار (عماد) إلى (رفعت) للإجابة فقال:

- عجز الأنظمة العربية للوقوف أمام إسرائيل أفقدها مكانتها أمام شعوبها التي فقدت أصلاً الثقة بها، وضرب إسرائيل للمفاعل النووي العراقي في بداية الثمانينات وضع الأنظمة العربية في موقف شديد الحرج، فهي لم تقدر على تحرير فلسطين ولا حتى استرجاع أراضيها التي احتلتها إسرائيل عام ٦٧، ولا الرد على التجاوزات الإسرائيلية والاعتداءات المتكررة على أراضيها وسيادتها، وهي كذلك غير قادرة على امتلاك السلاح النووي على غرار إسرائيل ولا تملك هذه الأنظمة حتى بلورة موقف موحد يؤثر في المجتمع الدولي لإصدار قرار يقضي بتجريد إسرائيل من

سلاحها النووي، لذا فسياسة الغموض وجدت قبولاً عربياً لأنها تحررها من العجز أمام شعوبها التي ستكون أكثر اتهاماً لها في حال الإعلان الرسمي من قبل إسرائيل بامتلاك السلاح النووي.

فضت الجلسة بعد تحديد موضوع للجلسة المقبلة والتي ستكون تحت عنوان (هل إسرائيل حقا دولة ديمقراطية؟ في ظل غياب الدستور والعمل بقانون الطوارئ الذي ينتهك حقوق الإنسان والحريات ويفرض الرقابة العسكرية على المنشورات والمطبوعات ويسمح للاعتقال بدون لوائح اتهام ويصادر الأراضي ويكرس الاحتلال ويمارس سياسة التصفية وقتل الأبرياء بدون محاكمة.

شعر (أبو نعيم) بصعوبة الوقوف بعد أكثر من ساعة على الجلوس فقال له ماهر:

- ماذا جرى لك يا أبا (نعيم)؟ هل ختيرت؟

رد (أبو نعيم) دون حساسية:

- وهل سنأخذ زمننا وزمن غيرنا؟؟

تدخل (باسل) مازحاً:

- وهل أخذت زمانك يا (أبا نعيم) حتى تأخذ زمان غيرك؟

أجابه (أبو نعيم) وهو يحمل كل الهموم:

- صدقت يا (باسل) فأنا حرمت من كل ما هو جميل في هذه الحياة، وكدتُ أنسى ذكريات ما قبل اعتقالي وكأن السجن حياتي ومستقري.

شعر (رائد) بحزن (أبي نعيم) العميق وسأله عن السبب فقال:

- أنا لست حزيناً على نفسي فالحزن لن يعيدني للشباب، وأرضى بقدر الله عز وجل، فالرسول عليه الصلاة والسلام يقول: " من رضيّ فله الرضا ومن سخط فعليه السخط "، ولكني حزين على الأسرى الجدد الذين قد يبدءون بنفس معاناتي إن تركتهم المقاومة كما تركوني وأمثالي.

وجدت كلمات (أبي نعيم) صداها في وجان (رائد) وعقله وتصور نفسه وهو يقضي زهرات عمره وشبابه وهو يتنقل من غرفة إلى غرفة ومن سجن إلى آخر، وتساءل فيما بينه وبين (رفعت):

- لماذا لا نجد لنا مخرجاً من هذه المقابر؟

أجابه (رفعت):

- ولكن كيف؟؟

- أنـا أجيـد حفـر الأنفـاق ولأضـعاف المسـافة الكفيلـة بتوصـيلنا لخـارج السـور، فلمـاذا نتكـل علـى أسـباب قـد نكتشف أنها وهماً بعد فوات الأوان؟
- صدقت يا (رائد) ولكن المسألة تحتاج إلى أدوات.
- وما ورائنا، ندبرها.

عمل الصديقان على تدبير احتياجاتهما فهرّبا قطعة قصيرة من منشار الحديد، وأدخلوا مبلغاً معقولاً من المال، وحاكوا أكياساً من القماش، وجمعوا أشياء بسيطة كالمسامير وبعض القطع المعدنية، وحصلوا على كمية قليلة من الأسمنت من عمال الصيانة العاملين داخل السجن.

اتفقت الغرفة على الهروب وتعاهد من فيها على كتم السر وحفظه ورفض الجميع خيار النقل من الغرفة خشية الفشل أو الضرر وقاموا باختيار أقرب زاوية من السور، تكون مستورة عن أعين السجانين قدروها بخمسة عشر متراً، وقاموا بخلع أربع بلاطات وصبها معاً في قالب فكانت سهلة في خلعها عند العمل وثابتة بإعادتها عند الوقف، ولكنهم تفاجئوا بوجود أرضية سميكة من البطون المسلح تحت البلاط تحتاج لعمل طويل فبدءوا به.

خرج الصديقان للزيارة التي يجد فيها الأهالي من العجائز والأطفال في نقاط التفتيش والإهانة كل أصناف العذاب، وحتى لا يحملوا أبناءهم هماً على همومهم يتظاهرون بالسعادة والراحة وفرحة اللقاء، فالأهالي يخرجون من بيوتهم قبل الفجر ويعودون بعد العشاء لرؤية أبنائهم لمدة تتجاوز قليلاً نصف الساعة، وما أثقل لحظة الوداع بعد انقضاء وقت الزيارة بين الأسير وزوجته أو ابنه أو أمه.

سأل (رائد) أخته (نسرين) عن (رندة) فبدا على وجهها شيئاً تخفيه.

قال (رائد):

- صارحيني يا أختي، ولا تسيئي الظن بي، فأنا أسأل لأطمئن لا لأحن.

أجابت كمن يحاول تخفيف الخبر:

- (رندة) ستتزوج من ابن خالتها (غريب) قريباً، ثم هربت له كبسولة صغيرة (رسالة مغلقة) من صديقه (إبراهيم).

وضع (رائد) الرسالة في فمه وتظاهر باستيعابه حتى انتهت الزيارة.

دخل (رائد) إلى الحمام ليخفي دمعته عن إخوانه الشباب، وحينما هدأ خرج على صوت (باسل) الذي يتحدث عن مأساة الأسرى في الملابس التي تدخل من ذويهم.

- مبروك القميص يا (رفعت).
- الله يبارك فيك يا (باسل) ولكنه واسع كالجلابية.

ضحك ماهر وقال:

- تعود يا (رفعت) أن يكون عندك خمسة قمصان ومثلها بنطلونات، وأكثر فيها ملابس داخلية وحذاءين، وتبقى في حاجة للملابس لأنها جميعاً لا تناسبك بالحجم أو اللون أو القصة التي لم تواكبها فتخجل من لبسها.

في تلك اللحظة حضر طعام الغداء فسأل عنه أبو (نعيم) مع تقدير الإجابة، فأجابه (باسل) بسخرية:

- هل تذكر ما أكلت أول يوم دخلت فيه السجن قبل أكثر من عشرين عاماً.

استغرب أبو (نعيم) من السؤال ومع ذلك أجاب:

- كالعادة أرز مع فاصوليا وشوربة كماء البحر.

رد عليه (باسل):

- ولكن هذه المرة الوضع مختلف فالغداء شوربة وفاصوليا وأرز.

أكل الأخوة طعامهم دون الشعور بأي لذة فيه، وقبل أن يتفرقوا قال ماهر:

- أتعرفون الأسير الوحيد هنا الذي يأكل بشهية ويستمتع بوقته؟؟

عجز الجميع عن الإجابة فأشار إلى كتف أبي (نعيم) وأضاف:

- هذا العصفور الذي يتحرر في النهار فيتركنا ثم بوفاء يعود إلينا مخلصاً لا ينسى تربيتنا له، رغم قسوة ظروفنا وسجننا.

وقف (رائد) عند ملحوظة ماهر بوفاء العصفور وسأل أصحابه:

- من يستطيع ظلم من كان وفيا له؟؟

أجاب بعضهم:

- قليل الأصل.
- سامحوني فقد أخطأت السؤال، وحاشاكم.
- نظر الأصحاب إلى بعضهم وكأن الأمر أحجية، ولكن عماد بفطنته فهم قصد صديقه (رائد) الذي أكمل حديثه قائلاً:
- ألا ترون أننا نظلم من تجمعون على وفاءه؟

تساءل ماهر:

- العصفور؟
- نعم . من العصفور الذي تعارفنا عليه في السجن؟؟ أليس العميل الخائن لنا؟

هز الجميع رأسه توافقاً وقالوا:

- معك حق يا (رائد)، وماذا تقترح أن نسميه؟
- نسميه بفعله.. مخلص.... فماذا ترون؟؟

وافق الجميع على الاسم فتركهم وبدأ يقرأ الرسالة:

" بسم الله الرحمن الرحيم مشتاق وبعد، فكرت المقاومة بإعطاء فرصة أخيرة للتائبين من العملاء ليسلموا أنفسهم وكل المعلومات التي بحوزتهم، فبلغنا أحدهم بخبر سيفاجئك وقد يكون له علاقة باعتقالك، فعلى حد معلومات هذا التائب الذي ستتبهر من شدة حساسيتها وقيمتها أن المهندس (غريب) خطيب (رندة)، والقريب زواجها منه مسئول عن شبكة واسعة من العملاء وتجار المخدرات وحثالات ساقطة أخرى. ولكننا نرتأي أن إبقاء التائب المدعو (أبو فريد) على علاقة معهم لتجميع أكبر قدر من المعلومات ولا تنشغل بأمر (رندة) سنحميها من هذا الحقير وخذ بالك من نفسك. (إبراهيم).

ضرب (رائد) رأسه بيده حتى سمعها (رفعت) فأتى إليه سائلاً:

- ما بك أشغلتني معك؟
- اقرأ الرسالة وستعرف لوحدك.

انقلب حال (رفعت) وتغير وجهه وتساءل:

- والآن ما الحل؟

أجابه (رائد) بإصرار:

- سرعة العمل يا (رفعت) فلن نضيع وقتاً لأن عهد النوم قد ولّى.

بدأ العمل على قدمٍ وساق بالتناوب طوال الليل، حتى استطاعوا تجاوز الأرضية الأولى وفرحوا بهذا الإنجاز، وواصلوا العمل.. حفر (رائد) بيديه فأحس بأرضية أخرى قديمة فوضع راحتيه على رأسه وقال:

- يا فرحة ما تمت ما زال ينتظرنا العمل الكثير.

كان المجاهدون حريصون على إخفاء القطع الإسمنتية التي تخرج من الحفر فيضعوها داخل قطع الخبز الزائدة أحياناً ثم يلفونها في ورق الج(رائد) ويضعوها وسط حاوية القمامة.

أوقف (رائد) (باسل) عن العمل لأيام لئلا يثير الشبهة بعد أن كثرت الجروح في يديه وبعدها بقليل وصلوا التراب، فحددوا مسارهم واستعجل (رائد) بالعمل بقدر استعجاله وحرصه على إنقاذ (رندة) من (غريب).

كان المناضلون ينقلون الرمل في أكياس قماشية صنعوها من ملابسهم، وكان الصبر سلاح أبي (نعيم) وهو يسقط حبات الرمل في دورة المياه في محاولة لعدم إغلاقها وتهريب التراب مع سيل المياه الجاري بقوة ما أمكن وبقي العمل على هذا الحال لأسابيع كانت كفيلة بقدرة (إبراهيم) على جمع أكبر قدر من المعلومات عن شبكة العملاء بمساعدة أبي فريد.

حضر أبو فريد غاضباً ل(إبراهيم) وسأله:

- ماذا تنتظرون لتخليص الناس من شرور هؤلاء الخونة؟؟
- الحساب يجمع يا أبا فريد، والمثل يقول:" إن أطعمت فاشبع وإن ضربت فأوجع ".
- ماذا تقصد؟

- نريد معرفة اجتماع كبير لهم..وأين؟ ونقطة ضعف المكان والتحقيق مع (غريب) بشكل خاص عن موضوع يهمني جداً... وأحتاج أجوبة لأسئلة كثيرة لديّ.

صمت أبو فريد برهة ثم قال:

- لن أعدك بشيء قبل أن تعدني.
- بالعفو عنك؟؟ فلقد عاهدناك على ذلك.
- لا يا (إبراهيم) بل بتكليفي شخصياً بتدميرهم كما دمروني وأهلي وأولادي.
- أعدك يا أبا فريد، أعدك.

مرت الأيام متباطئة على (رائد) الذي يتطلع للحرية كما يتطلع (إبراهيم) إغلاق ملف (غريب) ومن حوله، وفي نهاية النفق بزغ نور للصديقين وأكمل كل منهم مهمته.

عرف أبو فريد بإقامة حفل كبير في إحدى أكواخ المستوطنة سيحضره الضابط كوهين وضباط جيش آخرين برتب مختلفة، كما علم بأن هناك دعوة لفادى ومجموعة من الخونة الذين تكرموا مقابل جزيل عطاءهم وإخلاصهم لأجهزة الاحتلال.

تقابل أبو فريد مع (إبراهيم) وأجابه عن كل الأسئلة، وقال بنبرة ثقة، أعتقد أن الأكلة ستكون مشبعة والضربة موجعة.

هز (إبراهيم) رأسه مباركاً إخلاص أبو (غريب) وتصميمه على التوبة وقال:

- المشكلة الآن ستكون في إمكانية جر (غريب) لمقابلة.
- لن تكون مشكلة، فباستطاعتي إحضاره.
- كيف؟
- سلامة عقلك يا (إبراهيم)، سيأتي إذا كانت الأكلة مشبعة، وقد أخبرته عن مكان اختباء المطاردين الأمر الذي سال له لعابه ليحظى بثقة أكبر مستغلاً الحفلة ليعلن عن إنجازه ويثبت إخلاصه لهم فيحظى بالقربى لأنه يطمع في المزيد.
- أحسنت يا أبا فريد، فما تقوم به اليوم عجزنا عنه طوال سنين.
- وضع (إبراهيم) وأبو فريد خطة لاستدراج (غريب) لمكان يتأكد من خلاله من مراقبة المكان والمطاردين واتفقا أن يكون اللقاء بعد أسبوع، من تصادف تحديد موعد الهروب ل(رائد) ورفاقه وأسبوعين من طلب (غريب) لزفافه على (رندة).

وزع (رائد) المبلغ على أهل الغرفة، فسأل (باسل) أبا (نعيم) عن مقدار نصيبه، ودون أن يتمعن فيها أو بالصورة التي عليها أسرع في الإجابة:

- قد تكون مليون ليرة.

ضحك الجميع وقالوا:

- لقد انتهت الملايين والليرات يا أبا (نعيم) فهذه جنيهات مصرية.

قال (باسل) وكأنه يحلم:

- وأخيراً سأتمكن من أكل ثلاث قرون موز مرة واحدة بعد سنوات من أكل حصة قرن واحد على مدار سنين؟؟

قاطعه (رفعت) بالقول:

- الآن فقط أزلت استغرابي من تصرفك حينما كنت أراك تنظف أسنانك بعد الطعام ومباشرة تأكل الموز.

- نعن يا (رفعت) حتى أبقي طعم الموز في فمي أكثر وقت ممكن لأرضي شهيتي منه.

قال ماهر:

- وهل سنتوقف عن اللف والدوران؟؟

قال أبو (نعيم) بما يشبه الجد:

- وهل مثلنا بعد هذا العمر يلف ويدور؟؟

أجابه ماهر:

- لم يمر عليّ أسير بريء من اللف والدوران في النزهة الضيقة التي تضطرنا للف فيها أليس كذلك.

جاء عدد المساء الأخير فوقف الأسرى مرة واحدة كالعادة، ثم بدأ السجان بتشخيص صورهم واحداً واحداً، وحينما سمعوا مكبرات الصوت تؤكد صحة العدد وعودة الضباط إلى مكاتبهم وستر الليل سكان الأرض بعتمة، قرر الأسرى بالبدء ب(رائد) و(رفعت) ووقف ماهر يراقب حركة السجان التي اقتربت فتفوه بكلمة السر للتوقف:

- غيمت يا شباب.

وقف السجان على باب الغرفة وأشعل الضوء وقام بعد أهل الغرفة ثم ذهب مطمئناً لشرب الشاي.

أعاد الصديقان المحاولة، ولم يصدقا نفسيهما وهما يتنفسان هواء الحرية طلقاء، وقبل قطع المسافة القريبة من جدار السجن الخارجي راقبوا برج المراقبة فلم يجدوا في جهتهم أحداً فأسرعوا.

دخل أبو (نعيم) التواق للحرية . وكان ثقيل الحركة . فوهة النفق متسرعاً بقليل من الحذر وضبط النفس، وإذا بالنفق

ينهار على مقدمته، وبأعجوبة استطاع أن ينسحب دون أن يصاب بأذى.

واصل الصديقان طريقيهما إلى مصر في جنح الليل، ولم يعلما بفشل باقي الشباب في الهرب، فيما اكتفى الشباب في الغرفة بأخذ الحيطة وتأمين نجاح هروب (رائد) و(رفعت)، فوضعوا على أبراشهما بطانيات شبيهة بالجسد النائم بهدف التمويه على السجان، حتى يكون بمقدور الهاربين الاستفادة من فرصة الليل للوصول إلى أقرب نقطة للحدود قبل الصباح حيث العدد.

في منتصف الليل حضر السجان، وأشعل الضوء وبيده قلم وأخذ يعد الغرفة ثم تركها مطمئناً من صحة العدد وهكذا حتى الصباح.

دخل الصديقان الحدود مع مصر، وخلا ورائهما نقطة مراقبة يبدو عليها علماً مصرياً محاطاً بالأنوار.

استعد المعتقلون في الغرفة لحالة استنفار عامة في السجن، وقبل دقائق من وصول الضابط للقسم، وبعد ساعة ونصف من صلاة الفجر وبشكل مستفز ارتفع صوت المكبرات:

- عدد يا شباب.

لبس من في الغرفة أحذيتهم وملابسهم وانتظروا.

فتح السجان باب الغرفة ودخل الضابط.

- صباح الخير يا شباب

لم يرد عليه أحد، فعد وذهب، وبعد استكمال عدد القسم اتضح أن العدد أقل باثنين من الرسمي، فظن الضابط أنه أخطأ ونادى مرة ثانية بإزعاج

- عدد للمرة الثانية يا شباب . عدد

وحينما تأكد من النقص ضغط على جهاز الإنذار الذي يحمله، فأعلنت غرفة المراقبة الاستنفار العام وأطلقت الصافرات، راجع الضباط عد الغرف كل على حدة فاتضح نقص اثنين من غرفة (أبي نعيم).

جاءت قوات كبيرة من الشرطة وبدأت على الفور التنسيق مع حرس الحدود لتمشيط المنطقة دون جدوى، وأثناء جولة لفحص السجن من الخارج اكتشف الحرس فوهة النفق خارج السور.

أغلقت إدارة السجون الغرفة وقامت بنقل من تبقى من ساكنيها لعزل السبع عقابا عللا تسترهم وأعلنت قائمة من الممنوعات فرضوها الأسرى كعقاب جماعي في كافة السجون.

وصل (رائد) و(رفعت) بعد يومين إلى رفح المصرية ونزلوا عند (خالد) الذي راقب الأخبار عن عملية الهروب ولكنه استبعد أن يكون من هرب هما أخيه (رائد) وصهره (رفعت).

- انتم الآن في أمان.

طلب (رائد) من أخيه التنسيق مع والده لنجاح العودة إلى غزة، فوافقه الرأي بعد أن صارحه بقضية (رندة) التي تتعرض لكارثة مصيرية دون أن تدري.

استطاع أبو فريد استدراج (غريب) الذي كان يحمل بيده كاميرا تصوير فيديو لتصوير المطاردين بعد أن أوهمه أبو فريد أنهم يقيمون في بيت مهجور. دخل (غريب) وأشعل الضوء فوجد (إبراهيم) جالس مع مجموعة من رجال المقاومة تنتظر قدومه، فبادر (إبراهيم) بالترحيب:

- أهلا وسهلاً بالعريس.

أحس (غريب) بالكمين الذي وقع فيه فألقى الكاميرا وحاول إخراج مسدسه، ففوجئ بأبي فريد يضع مسدساً في رأسه ويقبض على يديه.

قال (إبراهيم) لفادى وهو ينزل سلاحه بعد أن استعد لحركة (غريب):

- أعتقد أن اللعبة قد انتهت يا (غريب)، فكان الفعل منك أقرب إلى القول.

ثم أمر (إبراهيم) رجال المقاومة بتقييده وتسجيل شهادته بالكاميرا التي أحضرها. اعترف (غريب) بكل ممارساته وباقي أعضاء الشبكة التي تعمل معه، لكنه لم يتطرق أبداً إلى قضية تسليم (رائد)، أعطاه (إبراهيم) مهلة للتفكير.

في هذه الأثناء تمكن كل من (رائد) و(رفعت) من دخول قطاع غزة بسلام.

رحب أبو (خالد) وزوجته بابنهما وصهرهما، وبعد الترحاب والتسليم اعتذر (رائد) عن البقاء في النزل خوفاً من مداهمة الجيش له في أية لحظة.

وبشيء من التوتر سأل (رفعت):

- إلى أين سنذهب؟

أجابه (رائد) بثقة:

- وهل نسيت صديقنا (إبراهيم).
- لا لم أنسه، ولكن.. كيف سنصل إليه؟؟
- تجاهل (رائد) سؤال (رفعت)، وفضل مقابلة (أشرف) ليحذره من ابن خالته، قبل زفاف (رندة) له، وفي تلك

الأثناء صادف (أشرف) وهو يخرج مع شخص آخر من بيته فاعترضه على الفور قائلاً:

- أريدك في موضوع هام وخطير جداً يا (أشرف).
- التفت (أشرف) يميناً وشمالاً خوفاً من أن يراه أحد وهو يقف مع (رائد) الهارب من السجن والذي قد يكون مراقباً، وحينما تأكد من خلو الشارع من المارة قال له:
- كيف هربت؟
- وما هو الموضوع الخطير الذي تريدني من أجله، وهل هو نفس الموضوع الذي طلب (إبراهيم) مقابلتي لأجله؟؟
- أتعرف مكان (إبراهيم)؟؟
- كلا، ولكني سأذهب بصحبة صديق قديم كان لي لقاء سابق معه ويخصك.

استغرب (رائد) عندما اقترب منه الأخ وسلم عليه وقبله بحرارة دونما معرفة مسبقة به، وانشغل فكره بالشيء الذي يخصه في ذلك اللقاء القديم الذي تحدث عنه (أشرف)، وسأل هذا الشاب:

- معذرة، هل تعرفني من قبل؟
- اسمي زياد ولي معك قصة سأحدثك بها هناك.

وصل الأربعة (رائد) و(رفعت) و(أشرف) والشاب الذي رافق (أشرف) إلى البيت المهجور وكان بيتاً قديماً في منطقة بعيدة، دخل زياد لوحده.

- لماذا لم تحضر (أشرف) معك، ألم أقل لك إنني أريده في أمر هام جداً؟
- اهدأ يا (إبراهيم) فلقد جاء معي (أشرف) وضيفين عزيزين جداً.

جهز (إبراهيم) ومن معه السلاح تحسباً لمؤامرة قد يتعرضون لها، إذ لك يعتادوا على هذه الطريقة من زياد.

دخل (أشرف) ثم تبعه كل من (رائد) و(رفعت)، فلك يصدق (إبراهيم) عيناه، وبطريقة عفوية ألقى السلاح وأسرع نحو صديقيه وعانقهما بحرارة تنم عن شوق كبير لهما ولم يتمالك نفسه فنزلت الدموع من عينيه وهو يقول:

- لا أصدق عينايّ، أنتما بجد هنا أم أنني أحلم؟؟ الحمد لله على سلامتكم حمداً لله على نعمته، حمداً لله الذي جمعنا في هذا اللقاء، بكم أشعر بقوة الثورة وعنفوانها، أنتم الّذين هربتما إذاً، يا مرحباً بأبطال فلسطين وأبطال المقاومة، تفضلوا تفضلوا..

لمح (رائد) (غريب) مقيداً بالسلاسل فترك صاحبيه وتقدم نحوه قائلاً:

- لن أوسخ يديّ بك، ولكنني أقسم إن لم تصدقني القول سأقتلك، ما هي علاقتك بسجني و(رفعت)، وعودتك وخطبتك ل(رندة)، ماذا حصل وكيف؟

نادى (غريب) على صديق عمره (أشرف):

- ناشدتك الله يا ابن خالتي ضمان حياتي وخروجي.
- سأل (أشرف) عن سبب تقييد (غريب) ووجوده في هذا المكان، فأجلسه (إبراهيم) على كرس قبالة كاميرا الفيديو وبدأ يشاهد ويسمع باندهاش شديد اعترافات (غريب)، ثم تقدم منه وسأله:
- لماذا يا (غريب)؟ لماذا فعلت كل هذا؟ إذاً فأنت الذي أبلغت عن (رائد) حينما جاءني زياد لأدله عليه، وقد صارحتك يومها بأنه شاهده ينسحب بعد أن نفذ عملية عسكرية ضد جيش الاحتلال

سار زياد نحو (رائد) وقال له:

- نعم يا (رائد) فأنا أعرفك منذ ذلك الحدث وذهبت ل(أشرف) طالباً منه أن يعرفني عليك لأعمل معكم في المقاومة.

أكمل (أشرف):

- وأنا أخطأت يومها عندما صارحت (غريب) بالأمر، ولم أكن أتوقع أنه قد باع نفسه.

اكتملت مفردات السر دون اعتراف (غريب) كما تكتمل اللوحة بأجزائها المتراكبة قطعة تلو الأخرى، هنا توجه (إبراهيم) نحو (غريب) وسأله:

- لماذا؟

خفض (غريب) رأسه يبحث عن مبررات لهذا السقوط، محاولاً التعذر بإكمال تعليمه، وحبه القديم ل(رندة).... الخ

فقال (إبراهيم):

- وأنت في هذا الحال، هل حققت ما تريد؟
- كلا، وأقسم إنني نادم كل الندم و..

قاطعه (إبراهيم):

- وما ينفع الندم، لقد فات الأوان يا (غريب).

ارتعدت فرائص (غريب) خوفاً من المصير الذي ينتظره فأكمل (إبراهيم):

- نحن لن نقتلك، ولكن سنسلمك للسلطة تتدبر أمرك وفق القانون، ولكن ليس قبل أن تطلق (رندة).

كان (غريب) جباناً لدرجة كبيرة، وكان أكثر ما يثير خوفه الموت، فهو يعلم أن الإعدام هو مصير كل الخونة. فقال بصوت نادم:

- (رندة)، طالق.. طالق.. طالق.

شكر (أشرف) (إبراهيم) الذي أنقذ حياة أخته من مصر الارتباط بخائن، وقدم اعتذاراً شديداً من (رائد) الذي سبب له بدون قصد في سجن لو علم معناه، لعاش ما بقي من عمره يعتذر ل(رائد) و(رفعت).

طلب (أشرف) من (إبراهيم) و(رائد) قبوله في صفوف المقاومة، فحاولا ثنيه عن القرار بعد أن أوضحا له تبعاته، لكنه أصر على طلبه، وبعد حوار طويل وافقا على ضمه.

عاد (أشرف) مسرعاً إلى البيت لإطلاع (رندة) على ما حدث، فوجدها مع صديقتها حنان، التي داومت على زيارتها بعد الإفراج فاستأذن منها وأطلعها على تفاصيل الأمر.

تفا جئت (رندة) مما سمعت.، فهي لم تستبعد أنانية (غريب) وحبه لذاته، ولكنها لم تتصور بأنه سيصل إلى هذا الحد من السقوط والنذالة.

وضعت (رندة) يديها على رأسها الذي خفضته ألماً وصداعاً، وحمدت الله أن تخلصت من عار (غريب) وسمعته السيئة.

كانت المفاجأة الأجمل على قلب (رندة) نجاح (رائد) بالهروب من السجن الذي تعرف قسوته وظرفه، فبعثت له السلام مع (أشرف) والشكر له ولرفاقه الذين خلصوها حموا مستقبلها من شر (غريب) وحقارته.

كانت أم (أشرف) تشعر بالخجل كلما ذكرها وزجها بتفضيلها لفادى، فاختلطت مشاعرها بين فرحتها بإنقاذ (رندة) من مستقبل أسود كانت السبب في صناعته، وبين الحزن جراء خيبة الأمل بابن أختها الذي كانت تت(منى) له حياة سعيدة.

اقترب أبو فريد من (إبراهيم) الذي كان يجلس على كرسي خيزران قديم مليء بالغبار في زاوية من زوايا البيت المهجور، ونزل قبالة ركبتيه ووضع يديه على فخدي (إبراهيم) وكأنه يرجوه وذكره بالوعد، فرد عليه (إبراهيم):

- أنا عند وعدي يا أبا فريد، ولكن في نفسي استفسار سأصارحك به، كيف تولد في قلبك كل هذا الحقد على الخونة رغم أنك.... وسكت.

انتصب أبو فريد ومشى بعض الخطوات وقال:

- لماذا سكتّ، أكمل، رغم أنني كنت منهم... أنا لن أوجد الأعذار والمبررات كما حاول (غريب)، فأنا كنت سيئاً وفقط، ولكن سوئي لم يتعدَّ المخدرات والتجارة فيها حتى انقطعت منها ولم أصبر، فكلفوني بمهمة كانت السبب في توبتي، كما كانت سبباً ليتولد في داخلي هذا الحقد والكره لهم ولأفعالهم، كانت هناك طالبة في الجامعة تتصدر المظاهرات والعمل الطلابي في الجامعة اسمها عبير، فقررت المخابرات إسقاطها نقمة منها ومن إخوانها المقاومين، وكان أبوها دقة قديمة، فأوصوا إحدى الساقطات أن تتقرب منها حتى أصبحت هذه الساقطة موضع ثقة بالنسبة لعبير، وعلى باب الجامعة كنتُ أنا من سيتظاهر بأنه سائق أجرة، وسآخذها بالتنسيق مع تلك الفتاة الساقطة، وفي الطريق طلبت من عبير أن تعطيها رأيها في زجاجة أوهمتها بأنها زجاجة عطر لكنها مملوءة بسائل مخدر، وهكذا خدرت إلى أن وصلنا إلى البيت الذي ستقام فيه حفلة الأسبوع المقبل، ولم يخطر ببالي أنهم سيغتصبونها هناك وسيصورها في أوضاع قذرة، وحينما رفضت التعاون معهم هددوها بنشر الشريط، ورغم ذلك

بقيت على موقفها ورفضها، وبعد أيام علمت من تلك الساقطة أن عبير صارحت أهلها بما حدث، ولكن أبوها لم يصدقها وتعامل معها على أنها منحلة أخلاقياً وزانية، وقام بقتلها باسم الحفاظ على الشرف مع أنها الشرف كله، ومنذ ذلك اليوم يا (إبراهيم) وضميري يعذبني وكأنني أنا الذي قتلها، فهل علمت لماذا أنا مصر على الانتقام من هؤلاء الجبناء المفسدين؟

تأثر (إبراهيم) من قصة عبير تلك الفتاة المسكينة الشريفة، واقترح (رائد) زيارة أهلها وإطلاعهم على الحقيقة، لإثبات براءة ابنتهم المظلومة في قبرها.

وسأل (رائد) أبا فريد:

- وبماذا تفكر؟
- أفكر بتدمير البيت بمن فيه ليلة الحفلة، أثناء تجمع كافة أفراد المجموعة.
- كيف؟
- سأذهب للحفلة مثلي مثل غيري، وكأن شيئاً لم يكن، وسأحمل معي هدية للضابط كوهين، ستكون عبوة موقوتة شديدة الانفجار تكون كفيلة بقتلهم جميعاً والتخلص منهم.

وافق الجميع على الخطة التي وضعها أبو فريد، وتمنوا له النجاح، وتم تجهيز العبوة التي سيحملها معه.

لم يجد أبو فريد صعوبة في دخول المنزل يوم الحفلة ولكنه استغرب من نقاط المراقبة التي تحيط بالمنزل على غير عادة.

بدأت الحفلة، وقدم أبو فريد الهدية للضابط كوهين فوضعها قبالته على الطاولة التي يجلس عليها كبار المتعاونين وتجار المخدرات والساقطين والساقطات ومنهنّ المسئولة عن قتل عبير والمجرم الذي اغتصبها وضباط آخرين.

استأذن أبو فريد من الحضور الذين غرقوا في الملذات والرقص والشرب وخرج، وبعد خروجه بقليل سمع صوت انفجار قوي هز المنطقة كلها مما أثار الجنود المتواجدين على نقاط المراقبة فأخذوا يطلقون النار في كل اتجاه، فاخترقت رصاصة جسد أبي فريد الذي صدق الله بتوبته، فعلت روحه إلى السماء التي شهدت على صدقه وجهاده وتوبته.

تأثر (إبراهيم) و(رائد) وشباب المقاومة من لدى معرفتهم باستشهاد أبو فريد الذي خلصهم من شرور من أولئك الخونة الذين باعوا ضمائرهم وشعبهم بالقليل التافه من

الملذة والمتاع، ترحم الجميع على أبي فريد الذي لقن الاحتلال درساً لن ينساه.

استطاعت السلطة توفير الأمن للمطاردين في قلب المدن فعاشوا حياتهم كغيرهم ولم يجدوا أي صعوبة أو استهداف باستثناء المرور على نقاط العبور والتفتيش أو السفر.

تقدم (رائد) لخطبة (رندة) ثانية، كما تقدم (أشرف) لخطبة حنان واتفق العرسان الثلاثة (رائد) و(رفعت) و(أشرف) على الزواج في ليلة واحدة، فأقاموا عرساً كبيراً حضره مئات الأصدقاء والمهنئين، وتحدث عن روعة العرس كل الحضور الذين غمرتهم السعادة والسرور.

في نهاية سبتمبر لعام ألفين دخل شارون مع عصبة متطرفة باحة المسجد الأقصى غير آبه بمشاعر المسلمين ولكنه خرج مضطراً مذلولاً منه بعد أن تصدى له مئات الشباب الفلسطيني المخلص والمجاهد، فسقط من بينهم العشرات بين شهيد وجريح دفاعاً عن قدسية أولى القبلتين وثالث الحرمين.

كانوا يدركون أن للمسجد الأقصى آية كتاب الله العزيز هي الآية الأولى من سورة الإسراء، تذكر كل العابدين والموحدين بمكانته، وتفرض عليهم الذود عنه بالروح والدم.

انتفض الشعب الفلسطيني كله صغيره وكبيره شبابه وشيوخه، رجاله ونساءه، مطالبين كباقي الشعوب بالحرية والاستقلال والسيادة الكاملة على المسجد الأقصى المبارك، وأثبتوا كما هم دوماً أن المسجد الأقصى لن يكون أبداً لقمة سائغة لشارون وزمرته الحاقدة وأن حرمة هذا المكان الذي بارك الله حوله أعز عليهم من كل متاع الحياة الدنيا.

عمدت آلة البطش والإرهاب الصهيونية بكل إمكانياتها لقمع إرادة الشعب الفلسطيني، وشكلت إسرائيل بهذه الممارسات أقبح مظاهر العنصرية والإرهاب المنظم غير مكترثة بمظاهر الإنسانية واحترام كرامة وحرية الإنسان التي نصت عليها كل الشرائع السماوية والقوانين الدولية، فارتكبت المجزرة تلو المجزرة وتتابعت جرائمها التي شاهدها العالم عبر الفضائيات، فوقف العالم الحر مذهولاً أمام هذه الفظاعة التي تقشعر لها الأبدان وتتكرها فطرة الإنسان، لم تفرق آلة الإرهاب التي تنصلت من الضمير البشري والحس الإنساني بين طفل وشيخ أو رجل وامرأة أو بين حجر ولا شجر ولا بشر، فدمرت الأخضر واليابس ولم يسلم من بطشها حتى الحيوان ولا الحمام رمز السلام.

فأعـدموا العشـرات مـن الأطفـال الأبريـاء بحجـة تصـفية مطلـوب واحـد دون محاكمـة، وقصـفوا البيـوت، وضـربت طـائراتهم الأمريكيـة الصـنع بكميـات كبيـرة مـن المتفجـرات والصـواريخ البيـوت الآمنـة فقتلـت الأبريـاء ومزقـت الأشـلاء وخلفت الدمار والتشريد وعشرات الإعاقات الدائمة.

كانـت هذه الآلـة الإرهابيـة تطحـن كالطاحونـة لا تـراعِ ذمـة ولا تأبـه بخلـق يغذيها حاقد متجـرد مـن أبسـط عـادات بنـي البشـر فاستشـهد وجرح الآلاف ومثلهم من الأسرى، وحلت بشعب فلسطين الحر كوارث ودمار وتشريد وحصار وقلـع للـزرع والأشـجار، وتبعـه انهيـار اقتصـادي وتجويـع متعمـد. وأضـحى تتـابع أخبـار الاجتيـاح هنـا وهنـاك وسقوط مئـات الشـهداء أمـراً اعتياديـاً فـي نشـرات الأخبـار وأصـبح الـدم الفلسـطيني شـاهداً أمـام العـالم علـى همجيـة ونازيـة الجنـدي الإسرائيلي عديم الأخـلاق، وعلـى أكذوبـة العـالم الحـر الـذي تروجهـا أمريكيـا داعمـة الإرهـاب الـدولي، والتـي يشـهد العـالم علـى أنهـا الـداعم الأول سياسـياً وإعلاميـاً وماليـاً وعسـكرياً للدولـة العنصرية اليهودية.

وشـهدت الكوفيـة الفلسـطينية والعلـم الفلسـطيني بعـد سـنوات مـن النضـال فـي معركـة غيـر متكافئـة ماديـاً علـى كبريـاء

وعظمة وشموخ وعزة هذا الشعب الحر والمجاهد والعصية إرادته عن الكسر والتراجع.

لم يقف الشعب الفلسطيني مكتوف الأيدي أمام الوحشية الصهيونية بل تحولت المدن والقرى والأزقة وكل شوارع الوطن مساحة حرب في وجه دبابات العدو التي استعادت احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة فخلفت ورائها الخراب والدمار والقتل.

كان كل الشعب عنيد ومكافح والمقاومة تحقق نصراً بعد نصر فبعثوا الدبابات الأكثر تصفحاً في العالم مع طاقمها، كما وشهد العالم لهذا الشعب الذي تسابق أبناؤه وصبایاه وشبابه إلى الشهادة فدافعوا بأجسادهم وشحنة الموت التي حملوها لأعدائهم في كل مكان في البحر وفوق الأرض وتحتها بطول مئات الأمتار، فحولوا حياة عدوهم إلى جحيم لا يطاق، كان مسلحاً واحداً لا يملك إلا إيمانه بالله وعدالة قضيته وقطعة سلاح يدخل بها ثكنة عسكرية برصاصات معدودة، فيقتل ما يستطيع أن يقتل ثم يعود دون أن ينزل من جسده قطرة دم واحدة، فانتفض المقاومون على قلة

إمكانياتهم عشرات الجنود بكل قدراتهم كما يقتنص الصياد ضحيته.

التحق شباب الشعب الفلسطيني بالمقاومة بكل اتجاهاتها التي تجاوزت الحزبية المقيتة والتقوقع على الذات والنفعية الخاصة، وتجلت الوحدة بين كل الفصائل المقاومة في العمليات العسكرية ولاستشهادية المشتركة يجمعها الهم والهدف الواحد لحماية الشعب الأعزل من جبروت وعنجهية حكومة الاحتلال وجيشه المدجج بالسلاح.

واستأنف المقاومون واجبهم الإسلامي والوطني والأخلاقي بالدفاع عن أرضهم وشعبهم، فكثف المقاومون من عملياتهم المسلحة رداً على جرائم الاحتلال على مدار سنين وانهزم الاحتلال اثر تفجر ناقلة جند تبعثرت أشلاء ستة منهم مئات الأمتار قام بجمعها رجال المقاومة، فأرغموا بها جيش الاحتلال على الانسحاب من المنطقة المستهدفة، وحقن المقاومون بها دماء الأهالي وبيوتهم من القتل والدمار.

وبعد أقل من أسبوع نجح المقاومون ثانية من تفجير ناقلة جند أخرى في رفح فبعثرت أشلاء ستة آخرين من جنود جيش الإرهاب المحتل الذي فقد الثقة بقادته وبات على يقين أن

الحل الوحيد لوقف هذه الخسائر التي يتعرض لها بشكل يومي هو الهروب من كل قطاع غزة، قناعة منه قادته أن شعباً يحمل كل هذا الانتماء والصدق والعزيمة وحب الشهادة لا يمكن أن ينكسر.

هذه القناعة لم تحول بين جيش الإرهاب ولا قادته وبين شهوة الانتقام التي كانت غريزية في داخلهم، ففي منتصف مايو من العام ألفين وأربعة، حاصرت أرتال من الدبابات المعززة بالطائرات التي ألقت بحممها وصواريخها بعشوائية في كل الاتجاهات مستبيحة أرض رفح العزيزة بعد أن عزلتها بشكل كامل، وبدأ الجاهدون مشواراً جديداً وصعباً من الجهاد والمقاومة بقيادة (إبراهيم) و(رائد)، وباشر الاحتلال توزيع إرهابه وإفراغ شهوته في تدمير مئات البيوت المحاذية للحدود مع مصر.

قامت جرافات كبيرة ودبابات محصنة كالقلاع المتحركة تسحق كل شيء وتسويه بالأرض وكانت القناصة تعتلي أسطح البيوت تقتل كل جسم متحرك أياً كان.

مرت سبعة أيام كالجحيم على رفح لم يتوقف فيها دوي الانفجارات وهديل الطائرات والجرافات وأزيز الرصاص فحولت أطرافها إلى كومة من الدمار وكأن زلزال ضربها فسواها

بـالأرض وانقطـع عـن المدينـة التيـار الكهربـائي والميـاه والاتصالات ودمرت البنية التحتية وسحقت العواميد الكهربائية وخطـوط الميـاه تحـت المجنـزرات كمـا يسـحق الهشـيم تحـت حـوافر الدابـة التـي لا تعقل، فـانقطع السكان مـن قطـرة الميـاه والحليـب عـن الأطفـال الرضـع، قـاوم المقـاومون تقـدم الآليـة العسكرية الصـهيونية بكل مـا أوتوا من قوة فأحالوا بينهم وبين تحقيق شهوة الانتقام لردع المقاومة في أعقاب انتصاراتها.

دافـع (رائـد) و(رفعـت) و(أشـرف) عـن رفـح مسـقط رؤوسـهم وذكرى طفولتهم وشبابهم ببسالة وساند المجاهدون من خـارج رفـح ك(إبـراهيم) المقاومـة التـي اشـتدت ضـراوتها فقتلـوا جنـدياً وأصـابوا آخـرين فـي عمليـة جريئـة فتحركـت الجرافـات كـالثور الهائج تشق الأرض من ثقلها ودخلت مقبرة وهدمت ثمانين قبراً وسـحقت عظـام المـوتى فيهـا وأثنـاء توغلهـا دخلـت حديقـة للحيوانات فقتلت ما بها من حيوانات داخل أقفاصـها بـلا رحمة، وأحكمت الحصار على ثلاثمائة طفل يتيم بـلا طعام ولا شراب ولا كهربـاء فـي قريـة الأيتـام فاشتد جوعهم وعطشـهم رعبهم من إرهاب بات يهدد حياتهم بالموت ،

اشتبك المقاومون بوحدة ميدانية رائعة مع الجيش الذي حاول بكل إمكانياته اختراق قلب رفح ومخيمها دون جدوى فسطروا

بدمائهم وأرواحهم الطاهرة أسمى آيات العز والفخار وبقيت الجثث ملقاة في الشوارع وترك البعض بيوتهم مدمرة عنوة وتجمعوا في المساجد والمدارس والخيام بعد أن فقدوا بيوتاً وضعوا مقابل بنائها جني السنين من تعبهم وأعمالهم وأتلفت تحت الأنقاض كل ممتلكاتهم وأثاث بيوتهم ولعب الأطفال وكراسات المدارس.

خرج الأهالي في تل السلطان بمسيرة سلمية جماهيرية حاشدة تضامناً مع إخوانهم المحاصرين والمهجرين وبلا رحمة قامت الطائرات والدبابات بقصفهم مباشرة فمزقت أشلائهم على طول الشارع وعرضه على عين العالم، ولم يتمكن الأهالي من تشييع ودفن الشهداء حتى امتلأت ثلاجات المشافي بالجثامين واضطرت المقاومة لوضع من تبقى ومنهم من لا تعرف هويته في ثلاجات تجارية لحفظ الخضار واللحوم حتى انتهاء الاجتياح، الذي لم تسلم منه المساجد وبساتين الأطفال، وقتل جراءه ما يزيد عن ستين شهيد ومئات من الجرحى والمعتقلين والبيوت المدمرة وتهجير الآلاف من أهلها.

شاهد (إبراهيم) طفل يحتمي بجدار ويتعرض لإطلاق نار فغطى عليه (رفعت) و(رائد) و(أشرف) وانطلق نحوه (إبراهيم) لينقذه ، سأله (إبراهيم) وهو يمسح دموعه بيديه:

- ما الذي أخرجك من البيت؟

أخذ الطفل يرتعش من هول ما تعرض له، وبصوت متقطع أجاب الطفل:

- أبي.
- ما به؟
- لم يتبقّ في بيتنا قطرة ماء فاعتلى المنزل متأملاً بوجود بقايا الماء في قاع الخزان، ليُذهب به ظمأنا، فأطلقوا النار عليه وقتلوه، وحينما رأيته مصبوغاً بالدم لم أتمالك نفسي فخرجت أنادي عمي القريب من بيتنا.

أوصل (إبراهيم) الطفل إلى بيت عمه، ثم ذهب ليرى والد الطفل لعله لم يفارق الحياة بعد، ولدى عودته أطلق قناصة حاقد النار عليه، فأصابه إصابة خطيرة قرب قلبه، تقدم (أشرف) مسرعاً نحوه لينقذه، فأصيب هو الأخر برصاصتين في قدميه وقعد بجانبه. تقدم (رائد) وحدد جهة إطلاق النار ورصد القناصة وأطلق عليه رصاصة مباغته أصابت رأسه فقتلته على الفور، وتقدم نحو صديقيه بحذر وغطاء من (رفعت) ونقلوهما إلى المستشفى.

أدخل (إبراهيم) إلى غرفة العمليات وكان في حالة غير مستقرة، وذهبت (رندة) ووالديها إلى (أشرف) الذي كان في حالة جيدة .

اضطر (رائد) لترك صديقه (إبراهيم) الذي لا زال في غيبوبة إثر العملية، وذهب ليواصل متابعة شئون المقاومة مع رفاقه المجاهدين.

توقف الغازون عن مواصلة تقدمهم بعد صور فظيعة، فضحت ممارساتهم إعلامياً وبعد صمود أسطوري للمقاومة والأهالي، ورعب قادة الجيش من قرار التوغل للمخيم وقلب رفح خوفاً من امتلاك المجاهدين لأسلحة قد تزيد من وهن معنويات الجنود التي انهارت بعد تدمير ناقلات الجند، وما سبقها من دبابات على أيدي رجال المقاومة.

تحسنت صحة (إبراهيم) حتى استطاع الحديث بصعوبة، فدار بينه وبينه (رائد) الذي كان دائم الحضور والزيارة له أثناء مرضه، قال (رائد) والدموع تنزل من عينيه:

- حمداً لله على سلامتك يا (إبراهيم).

حاول (إبراهيم) تحريك رأسه فلم يقدر، فساعده (رائد) فسأل (إبراهيم):

- كيف المقاومة يا (رائد)؟

- لا تقلق يا (إبراهيم) فالمجاهدون لن يتركوا الدبابات تتقدم شبراً واحداً ولو على جثثهم.
- وكيف أهلنا هناك؟
- لم ولن ينكسروا، تصوريا (إبراهيم) أن الله رزق رفح بخمسين مولود في أول الاجتياح.

طلب (إبراهيم) من (رائد) العودة للمواجهة بعد أن اطمئن على المقاومة ومعنويات الأهالي، وفي صباح اليوم السابع في الرابع والعشرين من مايو انتصرت رفح قلعة الجنوب والصمود والتحدي على غطرسة الاحتلال وترسانته، وانسحب الجيش الفاشي من المناطق التي اجتاحها بعد أن أعلن قائد العملية عن فشلها.

انتصر الواجب على الإمكان في رفح وكانت معنويات رجال المقاومة عاليه في عنان السماء والإرادة صلبة كالصخر ورسوخ الجبال.

عانق رجال المقاومة بعضهم فرحاً بالانتصار وانسحب الجيش خائباً مذلولاً، وبدأ الأهالي بالتعرف على الشهداء وتشييعهم ودفنهم وبدأت حملات التبرع في كل مدن فلسطين تضامناً وتكاملاً ومساندة لأهالي رفح وافتخاراً بهم.

وقفت حنان مع زوجها (أشرف) في إصابته، ورأت فيه الشهامة والرجولة والإخلاص حين تحسنت صحته وتعافى.

واستقبلت (نسرين) (رفعت) استقبال الأبطال المنتصرين بعد معركة شرسة، واستأجر (رائد) بيتاً له ولوالديه بعد أن دمر بيتهم القريب من الحدود ولم يقطع زياراته لصديقه (إبراهيم) الذي أخذت صحته تتدهور وكان يشد من عزيمته ويقول له:

- شد حيلك يا (إبراهيم)؟
- الشدة على الله يا (رائد)، ما الأخبار عندك؟
- اطمئن يا صديقي فتعب السنين والتضحيات الجسام والشهداء والأسرى والجرحى لن يذهب سدى، فلقد اتفقت حكومة الاحتلال على الانسحاب من غزة بما ذلك ترك كل المستوطنات ورحيل جميع المستوطنين بدون شروط، وذلك لم يكن ليحدث لولا فعل المقاومة وقوتها .

ابتسم (إبراهيم) وعقّب:

- هذه دولة ظلم يا (رائد)، والظلم لن يدوم ولو كان قوياً لأن الحق أقوى وأرسخ، والشعب الفلسطيني سينتصر بإذن الله، وما النصر إلا من عند الله، ما النصر إلا صبر ساعة، أتذكر حدود هذه الدولة في النكسة وبعدها، لقد احتلت كل فلسطين والجولان وسيناء حتى القناة وجنوب

لبنان، ثم أخذت تتناقص فعادت سيناء وجنوب لبنان والآن غزة وأجزاء من الضفة، ودولتهم التي كانت تحارب للحفاظ على توسعها باتت تقاتل للحفاظ على كيانها ووجودها المهدد بالفناء بفعل المقاومة.

انتهت الزيارة عند اقتراب الغروب فودع (رائد) صديقه (إبراهيم) الذي أحس بمزيد من التعب، وبصعوبة قام فتوضأ وصلى، ثم جلس يقرأ ما تيسر له من كتاب الله الكريم، وفي الصباح جاء (رائد) و(رفعت) ليطمئنوا عليه فوجدوه في خالة صعبة حتى كاد بصعوبة أن يقدر على

الكلام فقال (رائد):

- كيف أصبحت؟

رد (إبراهيم) بابتسامة خفيفة رغم سوء صحته:

- أصبحت أحمد الله إليكم بل وأسعد الناس..

ثم طلب من (رفعت) المساعدة ليسند رأسه وأضاف:

- لقد رأيت رؤية في المنام أتمنى أن تتحقق.

نظر (رفعت) إلى (رائد) ثم عاد لينظر إلى (إبراهيم) وقال:

- إن شاء الله خير يا أخانا الحبيب؟

- رأيت العالم قد تغير شكله، فلا يوجد شيء اسمه أمريكيا بل تقسمت لخمسين دولة كل واحدة لها أسم وعلم

وسياسة ورئيس، وشاهدتُ لقاءً للعرب بلا زعماء ولا أعلام ولا أسماء دول، بل رئيس واحد وله راية واحدة ومعه أشخاص يلتفون على طالة مستديرة بلباس تقليدي من التراث وأمامهم تعريفات قرأت منها، الشام وبلاد الحجاز والمغرب العربي ومصر والعراق، لم يكن يهود في فلسطين، ونتعامل بعملة عربية واحدة عليها صور للقدس ومكة، وهناك خارطة موحدة بلا جغرافيا سياسية، وشاهدت نفسي ساكناً في القدس وأنت في عسقلان، وكنتُ أعمل تاجراً فبعت واشتريت في دمشق والقاهرة وبغداد ومكة ومراكش، وقد دخلت لجميع هذه المدن بحرية وبلا قيود أو جوازات سفر وبعت واشتريت بعملة واحدة. كانت الحركة كبيرة والعالم أكثر تطوراً، وللعرب بصماتهم في كل الصناعات على اختلافاتها، والأجانب يأتون للدراسة في الوطن العربي الكبير ورؤساء دول كبار يتحدثون مع رئيسنا العربي باللغة العربية، ولا يوجد شيء اسمه جامعة الدول العربية أو الأمم المتحدة بل هناك تحالفات سياسية ومنظمات ضغط غير رسمية وتطوعية تعمل لتعزيز الحرية وحقوق الإنسان، كما رأيت أن وطننا العربي الكبير

يتميز بقدرة مواطنيه على التحدث بحرية والتعبير والرأي الحر في كل الاتجاهات.

- ورأيت للعرب كلمتهم وحضورهم وقوتهم العسكرية والاقتصادية الهائلة وجيشهم العظيم، ورأيت مناهج التعليم في المدارس تؤسس لقيادة العالم وفق مثل وقيم أصيلة نابعة من صميم ديننا الحنيف وأصالتنا العربية، والتاريخ يدرس بشفافية عالية وصدق مطلق، والأدب العربي أخذ يحتل مكاناً مرموقاً في كل محافل الأدب والثقافة، وأصبح للعرب منهجهم ومدرستهم الاقتصادية التي نجحت في القضاء على الفقر وهيأت للناس سبل العيش الشريف والكسب الحلال، وبات التحالف العربي الإسلامي واحداً من أقوى التحالفات على مستوى العالم، والجميع يحمل هم وحدة العالم الإسلامي.

سكت (إبراهيم) عن الحديث وبدا عليه التعب فسأله (رائد):

- ماذا بك؟

فأجاب:

- لا تقلق يا صديقي، ألا ترى أن حلمي كان رائعاً؟

قال (رفعت):

- هـذا حلـم الأمــة وحلـم أبنائهـا الشـرفاء والمخلصـين الأوفياء.

شعر (إبراهيم) أنـه سيفارق الحياة فأوصـى أصدقاءه باستمرار المقاومـة حتـى تتحقـق (أمـال) الشـعب وأن يـدعوا لـه بالرحمـة والمغفرة وأن يدفناه في مقابر الشهداء.

أسـرع (رائـد) لـدعوة الطبيـب لفحـص (إبـراهيم) الـذي تغيـر وجهـه وبـرُدَّ جسمه وغـاب عن الـوعي، وحينمـا وصـل الطبيـب كانـت روح (إبراهيم) تصـعد إلـى بارئهـا مـع النبيين والصـديقين والشـهداء والصـالحين وحسـن أولئـك رفيقـاً، فبكـى الصـديقان الوفيان (رائد) و(رفعت) صديقهما الشهيد (إبراهيم) الذي ارتقى إلى العلى ولسان حاله يقول:

- " وعجلت إليك ربِ لترضى ".

وتليا قول ربهما العظيم:

- " يـا أيتهـا الـنفس المطمئنـة، ارجعـي إلـى ربـك راضـية مرضيه، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ".

كـان لنبـأ استشـهاد (إبـراهيم) وقعـاً صـعباً علـى قلـوب كـل مـن عرفه، وكانـت جنازتـه المهيبـة شـاهداً صـادقاً علـى حـب النـاس ووفاءهم لـه وسيرهم على طريقه ونهجه، نهج المقاومة والجهاد، وكان الموكب شديد الهيبة والوقار كانت العيون تذرف الدموع

على رحيل فارس من نوع خاص، فارس أمضى حياته مجاهداً صادقاً لم يكل ولم يمل لم يفرط، خرجت عشرات الألوف تودعه ولسان حالها يقول:

- عهداً لله لا نبيع دمكم أيها الشهداء ولا نساوم عليه، عهداً لله أن لا نقيل ولا نستقيل، عهداً لله أن نحفظ عهدكم وأن نكون أوفياء لخياركم.

كان (رائد) و(رفعت) يحملان النعش وهما يحسان بالوصية التي تركها لهم هذا الراحل الكبير ولم تكن الوصية سوى دمه، وعقليهما يتسابقان من منهما سينفذ ضربة الانتقام الأولى، لشقيق العمر وتوأم الروح.

رأفت خليل حمدونة

سجن عسقلان